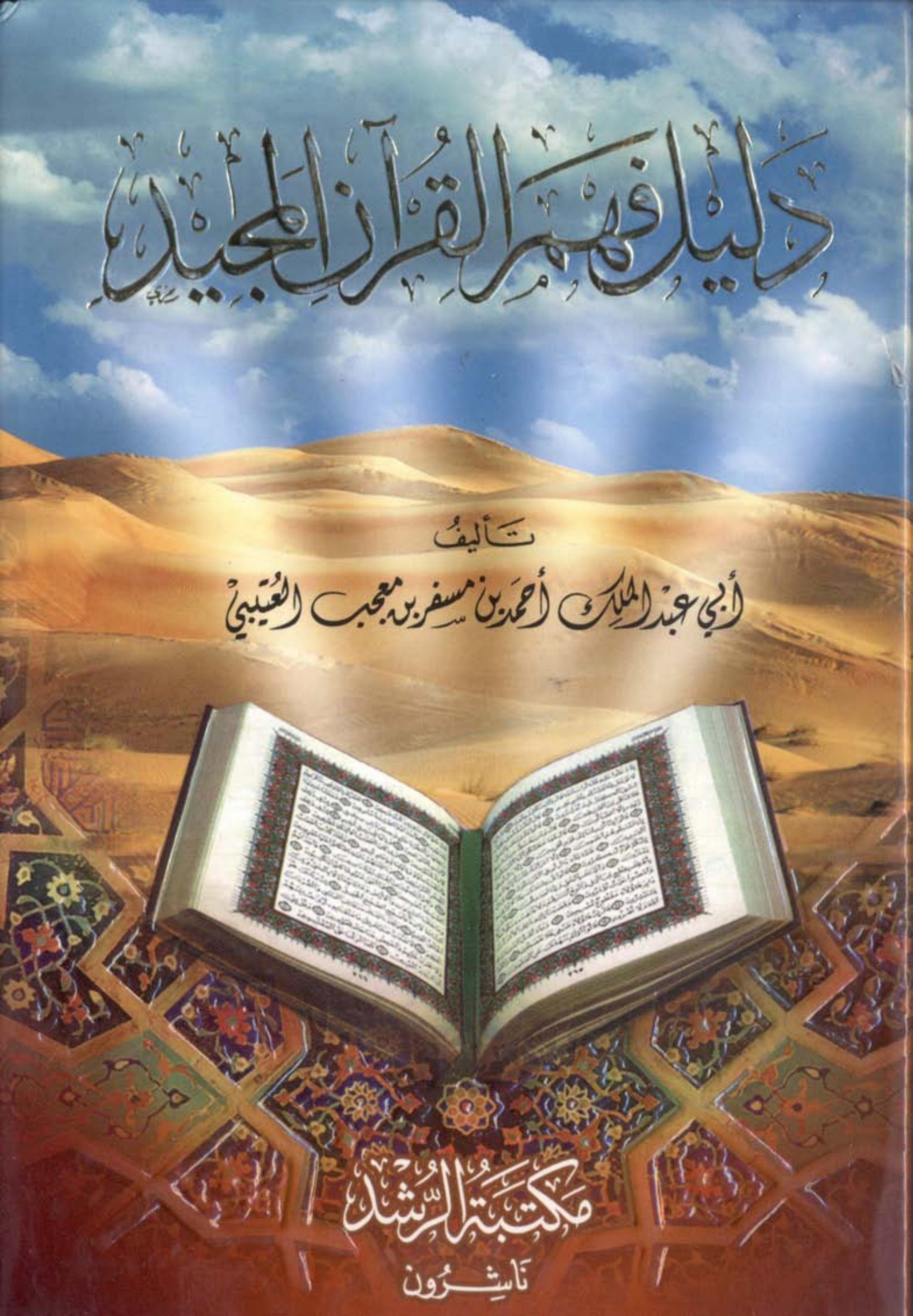


دليل فهم القرآن المجيد
تأليف
أبي عبد الملك أحمد بن مسفر بن معجب العتيبي
مكتبة الرشد
ناشرون



تأليف

أبي عبد الملك أحمد بن مسفر بن معجب العتيبي

مكتبة الرشد

ناشرون

الطبعة الثانية
١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م

مكتبة الرشد ـ ناشرون
المملكة العربية السعودية ـ الرياض
شارع الأمير عبد الله بن عبد الرحمن (طريق الحجاز)
ص.ب.: ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ ـ هاتف: ٤٥٩٣٤٥١ ـ فاكس: ٤٥٧٣٣٨١
E-mail: alrushd@alrushdryh.com
Website: www.rushd.com

فروع المكتبة داخل المملكة

★ الرياض: فرع طريق الملك فهد: هاتف: ٢٠٥١٥٠٠ ـ فاكس: ٢٠٥٢٣٠١
★ فرع مكة المكرمة: شارع الطائف: هاتف: ٥٥٨٥٤٠١ ـ فاكس: ٥٥٨٣٥٠٦
★ فرع المدينة المنورة: شارع أبي ذر الغفاري: هاتف: ٨٣٤٠٦٠٠ ـ فاكس: ٨٣٨٣٤٢٧
★ فرع جدة: ميدان الطائرة: هاتف: ٦٧٧٦٣٣١ ـ فاكس: ٦٧٧٦٣٥٤
★ فرع القصيم: بريدة ـ طريق المدينة: هاتف: ٣٢٤٢٢١٤ ـ فاكس: ٣٢٤١٣٥٨
★ فرع أبها: شارع الملك فيصل: تلفاكس: ٢٣١٧٣٠٧
★ فرع الدمام: شارع الخزان: هاتف: ٨١٥٠٥٦٦ ـ فاكس: ٨٤١٨٤٧٣
★ فرع حائل: هاتف: ٥٣٢٢٢٤٦ ـ فاكس: ٥٦٦٢٢٤٦
★ فرع تبوك: هاتف: ٤٢٤١٦٤٠ ـ فاكس: ٤٢٣٨٩٢٧
★ فرع الإحساء: هاتف: ٥٨١٣٠٢٨ ـ فاكس: ٥٨١٣١١٥

مكاتبنا بالخارج

★ القاهرة: مدينة نصر: هاتف: ٢٧٤٤٦٠٥ ـ موبايل: ٠١٠١٦٢٢٦٥٣
★ بيروت: بئر حسن: هاتف: ٠١/٨٥٨٥٠١ ـ موبايل: ٠٣/٥٥٤٣٥٣ ـ فاكس: ٠١/٨٥٨٥٠٢

«عن أبي جحيفة قال: قلت لعليّ: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم...» أخرجه البخاري.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده، أما بعد...

فيسرّني ويشرّفني أن أقيّد هذه الكلمات بين يديْ الطبعة الثانية لهذا الكتاب المبارك إن شاء الله: «دليل فهم القرآن المجيد»، وأسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل القرآن، الذين هم أهل الله وخاصته.

ولا يخفى على كل لبيب أنّ فهم القرآن المجيد من أعظم النّعم، ولا يكون ذلك متيسّراً إلا لمن آمن بالله تعالى وعظّم آياته ووقف عند حدوده، وعمل بما جاء عن الله على مراد الله سبحانه.

وإنني بهذه المناسبة أناشد كل من رام فهم القرآن المجيد والانتفاع به، أن يتدبّر ويطالع التفاسير الصحيحة، لا سيّما المعتنية بالآثار والأحاديث الثابتة بالأسانيد العالية، وأن يتفكّر في آيات الله الحسيّة والعلميّة في العالم العلوي والسفلي، وأن يسجد لله خاشعاً ويتضرّع إليه، أن يفتح على قلبه وبصيرته ليفهم ويعمل بكتاب ربّه تعالى.

ولا يفوتني أن أشكر كلّ من ألحّ عليّ بإعادة طبع الكتاب من داخل المملكة وخارجها، والشكر موصول للإخوة النبلاء في مكتبة الرشد الذين ساهموا في إخراج الكتاب بحلّة قشيبة، أسأل الله لي ولهم وللمسلمين البركة في الأعمار والأرزاق، وأن يجعلنا من حملة القرآن العاملين به، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المؤلف

احمد بن مسفر العتيبي

حرر في تبوك ٨/ ١/ ١٤٢٩

المقدمة

الحمد لله الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، بعثه الله هادياً ومعلماً بالحق مبيناً، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً، وبعد. .

فإنَّ من أجلِّ نعم الله على المسلم؛ أن يعيش ساعات عمره جَذِلاً متمتعاً بنور القرآن وهداياته، وأن يسعد مبتهجاً في أمنه وبشاراته. كما قال الحق سبحانه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾. [يونس: ٥٨].

وكثير من الناس ـ الذين يلهثون في طُرُق الحياة وشِعابها ـ لم يذوقوا حلاوة القرآن، ولم ينعموا بهداياته، ولم يسعدوا بخيراته وبشاراته، والدليل على ذلك: شكاية بعضهم من بعض، وطمع عدوهم فيهم، بسبب تمزقهم وتفرقهم، وإلى الله المشتكى.

لا جرم أن المسلمين وصلوا شرقاً إلى حدود الصين وغرباً إلى أسبانيا، وشمالاً إلى القُفْقاس من بلاد الروس، وجنوباً إلى البحر الهندي، واستولوا على الهند.

كل ذلك بتوفيق الله ثم بفهمهم للقرآن المجيد: تلاوة

وتدبراً وتفكُّراً وعملاً بآياته ونصوصه[1].

إن المؤلم في واقع الناس اليوم؛ أنهم يعيشون حياةً نباتية، لا همَّ لهم إلا المطعم والمشرب، وليس لهم وراء ذلك أدنى رغبة، كتجديد إيمان وتهذيب نفس ودعوة للخير، ولم يَنْجُ من ذلك الواقع الأليم سوى ثُلَّة هم في الناس غرباء!

وإذا أراد القاصي والداني أن يَصْلُح حال الناس اليوم؛ فلا سبيل إلى ذلك إلا بالعلم والإيمان اللذين بهما تصحُّ القلوب والأبدان، والعلم والإيمان واضحان جليَّان في وحي الله ونوره.

ومن لطائف السِّير أنَّ معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ لما احتضِر، جاءه «مالك بن يخامر» ـ رحمه الله تعالى ـ فلما جلس عندَهُ بكى، وقال: أنا لا أبكي على دُنيا كنت أُصيبُها مِنْك، ولكن أبكي على العلم والإيمان اللذين كنتُ أتعلَّمهما مِنك، فقال: إن العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما[2].

إن الظفر والنصر اللذين ينشدهما المسلمون اليوم في

---

(١) في كتاب «أُسس التفكير السليم ومناهجه في الكتاب والسنة» لكوكب عامر، دراسة جادَّة وموعبة، وفيها فوائد عن سمات المنهج الصحيح للتفكير العلمي المؤصَّل، فقف عليه إن شئت.

(٢) «أسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية» لابن رشيق: (ص/ ٩).

سبيل تحقق خيرية الذات وخيرية الحياة وخيرية المصير، لا سبيل إلى نيلها إلا بدراسة فقه القرآن المجيد، دراسة واعية متأنية لاستخراج كنوزه وهداياته، بشرط أن تكون تلك الدراسة بمنظور الوحي الإلهي، بعيداً عن السفسطات والخرافات والقياسات الفاسدة(١).

والقرآن العظيم مليء بالمسالك الحضارية والتربوية والعلمية والعسكرية والقيم الخلقية النبيلة التي تُنظِّم عناصر بناء الأمة الإسلامية السويَّة(٢).

إن أعظم وصية يوصى بها المسلم هي الوصية بكتاب الله تعالى، كما في حديث طلحة بن مصرِّف قال: سألت عبدالله بن أبي أوفى ـ رضي الله عنهما ـ: هل كان النبي ﷺ أوصى؟ فقال: لا، فقلت: كيف كتب على الناس الوصية، أو

---

(١) (لطيفة): من القصص التي تروى عن المجاهد نور الدين محمود (٥٦٩هـ) بطل الحروب الصليبية، أن زوجته «خاتون» أصبحت يوماً وهي غضبى، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت نومها الذي فوَّت عليها وردها، فأمر نور الدين أن يوقظ الناس عند السحر لقيام الليل، ورتَّب على ذلك أجراً. وكان الإفرنج يقولون: «إن نور الدين لم يظفر وينصر علينا بكثرة جنده وجيشه، وإنما يظفر علينا وينصر بالدعاء وصلاة الليل». انظر: «البداية والنهاية»: (١٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٤).

(٢) انظر الكتاب القيم «دلالة أسماء سور القرآن الكريم» لمحمد جيجك: (ص/ ١٧٩ ـ وما بعدها).

أُمِروا بالوصية قال: أوصى بكتاب الله[1].

فينبغي على كل مسلم ومسلمة؛ الإقبال على «الذكر الحكيم» تعلماً لأحكامه، وتفهماً لمعانيه، وحفظاً لمطالعه ومقاطعه، وعملاً بأوامره، واجتناباً لنواهيه.

لقد كانت دار «الأرقم بن أبي الأرقم» ـ رضي الله عنه ـ مدرسة محمدية؛ علَّم رسول الله ﷺ في ردهاتها الكتاب العزيز. وفِقْهُ هذه الحادثة التاريخية يُفيد أنَّ الأسرة التي لا يكون للقرآن في دارها دورٌ في تعلُّم القرآن وتعليمه؛ أسرة فرَّطت في حق كتاب الله تعالى، ويخشى على وليِّها وراعيها من إثم هجر القرآن المجيد، كما يفهم ذلك من قول الحق سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾. [الفرقان: ٣٠].

ثم ليعلم كل من هجر القرآن العظيم أنه أحد رجلين: إما مشتغل بدنيا يبني على موج البحر فيها داراً، وإما سارح شارد الفؤاد، خنقته الغفلة وقيدته، لا يأبه بواجب، ولا يقر بحق. وأكثر الناس اليوم ـ لو تأملت ـ راقد أو غافل، فالله المستعان!

فقل لي بربك: أيجدر بالمسلم أن يتوسَّد كتاب الله تعالى؟! أيليق بالمسلم أن يُغمض عينيه فلا يكحِّلهما بتلاوة آيات من الذكر الحكيم!

---

(١) «البخاري» (رقم الحديث: ٢٧٤٠)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ١٦٢٤).

إن من أجل النعم التي تستحق مضاعفة شكر الله تعالى قولاً وعملا؛ أن يفتح الله على العبد فهم معاني القرآن العظيم، فلا سعادة ولا غبطة ولا بهجة تعدل ذلك. وقد أعجبني في هذا المقام كلمة الإمام شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ حين قال وهو مسجون البدن: «قد فتح الله عليَّ في هذا الحصن في هذه المدة من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء مات كثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»(١).

لا يختلف اثنان أن من أهم القضايا التي تؤرِّق رؤوس كثير من المسلمين؛ قضية الإفادة من كتاب الله تعالى: تلاوة وفهماً وتربية، بأيسر الطرق وأحسنها، وجوانب تقصير المسلمين في تلك القضية واضحة وجلية، لا أستطرد في تقييدها.

وقد وفقني الله تعالى لِزَبر هذا الكتاب، مُلخصاً بأوجز عبارة، ومرصَّعاً بأبين إشارة، وأسأل الله المعونة فيما تحريته، والمثوبة على ما نويته، وهو حسبنا ونعم الوكيل. «واعلم أن بعض الناس يفتخر ويقول: كتبت هذا وما طالعت شيئاً من الكتب، ويظن أنه فخر، ولا يعلم أن ذلك غاية النقص، فإنه لا يعلم مزية ما قاله على ما قيل، ولا مزية ما قيل على ما قاله، فبماذا يفتخر! ومع هذا ما كتبتُ شيئاً إلا خائفاً من الله

---

(١) «أسماء مؤلفات شيخ الإسلام» لابن رشيق: (ص/ ١٠).

مستعيناً به، معتمداً عليه، فما كان حسناً فمن الله وفضله؛ بوسيلة مطالعة كلام عباد الله الصالحين، وما كان ضعيفاً فمن النفس الأمَّارة بالسوء»[1].

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المؤلف

١/١/١٤٢٤هـ

* * *

(١) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي: (١/ ١٦).

الفصل الأول
إيْقَاظ وتنبيه قبل الانتفاع بالقرآن

إنَّ القرآن الحكيم نِعمَةٌ عظيمة، فيه نَبَأُ مَا قبلنا، وخَبَرُ ما بعدنا، وحُكْمُ مَا بَيْنَنَا، وهو مأدُبَةُ الله، وحبل الله، وهو النور المبين، والشِّفاء النافع، عِصْمَةٌ لمن تمسَّك به، ونجاة لمن تَبِعَهُ، لا يَعْوجُّ فيُقوَّم، ولا يَزيغ فيُسْتَعْتَبْ، ولا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الردّ. هو الفَصْلُ ليس بالهزل، من تركه من جبَّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صُدِّق، ومن عمل به أُجِر، ومن حكم به عَدَل، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم[1]. وصفه الله بالعظمة، حيث قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾. [الحجر: ٨٧]. وأقسم الله به في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾. [يس: ٢]. وعلَّق الرحمة عند تلاوته بالاستماع إليه فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ

---

(١) وردت هذه المعاني في حديث موقوف على ابن مسعود رضي الله عنه، وفي رفعها إلى النبي ﷺ نَظَر، وراجع إن شئت: «المصنَّف» لعبدالرزاق: (رقم: ٦٠١٧)، و«جامع الترمذي»: (رقم: ٢٩٠٦)، و«علل الدارقطني»: (رقم: ٣٢٢).

﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ولا ريب في ذلك. فالقرآن كُليَّةُ الشريعة، وعُمْدَةُ المِلَّة، ويَنْبوع الحِكْمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائِر، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسُّك بشيء يخالفه(١).

«إنَّ قارئه لا يَملُّ قراءته، وسامعه لا تَمجُّه مَسامِعُهُ، بل الإكباب على تلاوته وترديده يزيده حلاوةً ومحبةً، لايزال غَضّاً طريّاً، وغيره من الكلام ولو بلغ ما عساه أن يبلغ من البلاغة والفصاحة يُمَلَّ من الترديد، ويُسأمُ إذا أُعيد، وكذلك غيره من الكتب لا يوجد فيها ما فيه من ذلك»(٢).

نزل القرآن العظيم على قلب رسولنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والبشرية كلُّها تَرْزَحُ في ظلامٍ دامسٍ، وجهل مُطْبقٍ، وخواء روحي لا يُوصف. فالأمم القديمة كالرومان واليونان التي اشتُهرت في التاريخ بـ«أم الحضارات»، بل رأس الخسارات، كانت مسرحاً للفوضى والانحلال والاختلال، وعسف الحكام، شرقت الشعوب فيها بعقائد الوثنية الظالمة، والسفسطات الآثمة، والخرافات الجامِحة. فاليونان مثلاً يزعمون أنَّ «جوبيتر» هو ربّ الأرباب عندهم،

(١) «الموافقات»: (٣/ ١٤٦).

(٢) «نهاية الأرب»: (١٨/ ٣٠٦).

وكانت صورته أقرب إلى صورة الشيطان منها إلى صورة الأرباب المنزَّهين. فقد كان حقوداً لدوداً، مشغولاً بشهوات الطعام والغرام، لا يُبَالي من شؤون الأرباب والمخلوقات إلا ما يُعْيِنُهُ على حفظ سلطانه، والتمادي في طُغيانه؛ وكان يغضب على «اسقولاب» إله الطب عندهم، لأنه يُداوي المرضى فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية!![1]

ومن جانب آخر ذابت أُسس الفضيلة، وانهارت دعائم الأخلاق حتى صار الناس يُفضِّلون العزوبة على الحياة الزوجية، ليقضوا مآربهم في حرية، وكان العدل يُبَاع ويساوم عليه مثل السِّلع، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة كل عناية وتشجيع.

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدّعون أنَّه يجري في عروقهم دمٌ إلهيّ، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة، ويعتقدون أنَّ في طبيعتهم شيئاً عُلويّاً مُقدَّساً، وكانوا

(١) «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه»: (ص/ ٧٠)، و«أشهر الديانات القديمة»: (ص/ ٥٠) وفيه أن الآلهة القومية عند الرومان يبلغ عددها ستة وثلاثين إلهاً، ومن أشهرهم: «مارس» و«نبتون» و«أبوللو». ولابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ تعليقات نفيسة على أديان الرومان واليونان. وكثيراً ما ينعتهم بـ«عبدة الكواكب والأوثان» و«الواحد من هؤلاء يطلب أن يصير نبيًّا»! انظر: «منهاج السنة النبوية»: (١/ ٣١٨)، و(٨/ ٢٤).

يُعَظِّمونهم أشدَّ تعظيم، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم، ويرونهم فوق القانون، وفوق الانتقاد، وفوق البشر، لا يجري اسمهم على لسانهم، ولا يجلس أحد في مجلسهم، ويعتقدون أنَّ لهم حقًّا على كل إنسان، وليس لإنسان حق عليهم، وأنَّ ما يرضخونه لأحدٍ من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكرُّم من غير استحقاق، وليس للناس معهم إلا السمع والطاعة. ورسخت في قلوبهم عقيدة لباس التاج، وجباية الخراج، تنتقل فيهم كابراً عن كابر، فكان الناس يدينون لهم بالمُلك وبالوراثة في البيت المالك، لا يبغون به بدلاً، ولا يريدون عنه محيصاً، فإذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيراً ملّكوا عليهم طفلاً، وإذا لم يجدوا رجلاً ملَّكوا عليهم امرأة. وعلى هذا المعتقد ملَّكوا بعد «شيرويه» ولده «أزدشير» وهو ابن سبع سنين، ومُلِّك «فرخ زاد خسرو» ابن «كسرى» وهو طفل، كما ملَّكوا «بوران» بنت «كسرى»!![1]

أما حضارات الهند وجاراتها، فقد كانت تعيش في همجية مقيتة، وفوضى تعيسة في وثنية تُمجِّد البقر وأعضاء التناسل، وعبودية تُذلُّ الإنسان ليكون أسفل سافل[2]!

---

(١) انظر تفصيلاً وافياً عن تاريخهم وعقائدهم في: «دائرة معارف القرن العشرين»: (٧/ ١٧٣ ـ ١٩٥)، و«الموسوعة العربية العالمية»: (١٧/ ١٨٠ ـ ١٨٥).

(٢) قبائل الأحراش هي التي وضعت قواعد الديانات الهندية، قبل ميلاد المسيح =

أما حضارات بني إسرائيل ـ اليهودية ـ فقد حفلت بالتصورات الوثنية وباللوثة القومية. فقد عبدوا العِجل، واتخذوا الأوثان، وقتلوا الأنبياء عليهم السلام، ووصفوا الله تعالى بالبُخل والفقر، ونسبوا إليه الولد ـ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً ـ ولهم في هذا المضمار تاريخ حافل، ومذهب في ميزان العدل باطل[1].

أما العرب فكانوا في انحطاط دينيّ شديد، يُعَانون من أدواء خلقية واجتماعية، جعلت منهم أمة منحطة الأخلاق، فاسدة المجتمع، متضعضعة الكِيان، حاوية لأسوأ خصائص الحياة الجاهلية، بعيدة عن محاسن الأديان.

ثبت في الصحيح عن أبي رجاء العطارِدي قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً، جمعنا حثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة

= عليه الصلاة والسلام بآلاف السنين. انظر: «أشهر الديانات القديمة»: (ص/ ٨١).

(١) وللوقوف على أباطيلهم انظر الكتاب القيم: «إفحام اليهود» للسموأل بن يحيى المغربي (٥٧٠هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ الذي كان يهوديًّا فأسلم. فهذا الكتاب «نسيج وحده» في فضح المعتقدات اليهودية المحرفة. وللعلم فإن ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» يُعوِّل كثيراً على كتاب «إفحام اليهود»، ويجعله عمدة في كشف العقائد اليهودية الضالَّة.

فحلبنا عليه ثم طفنا به»![1]

وقد كانت حِمير تعبد الشمس، وكِنَانة تعبد القمر، وتميم الدبران، ولَخْم وجُذَام المشتري، وطَيّء سهيلاً، وقَيْس الشِّعرى العبور، وأسد عطارداً[2].

فشا فيهم الربا والقِمار، وشرب الخمور، وركوب الفواحش، ووأد البنات وإراقة الدماء، حتى صارت الحرب مسلاة لهم، وفخراً بينهم:

وأحياناً على بكْر أخينا   إذا ما لم نجد إلا أخانا[3]

نزل القرآن[4] فأصلح العقائد، وطهَّر الأخلاق، ونظَّم

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ٤٣٧٦).

(٢) «طبقات الأمم»: (ص/ ٤٣).

(٣) «ديوان الحماسة»: (ص/ ٧٠). وانظر عرضاً رائعاً لأحوال الأمم قبل البعثة المحمدية في: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: (ص/ ٤٧ ـ وما بعدها).

(٤) ذكر الله تعالى نزول القرآن بلفظين: «الإنزال» و«التنزيل»، كقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: ١]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢﴾ [الشعراء: ١٩٢]. والفرق بينهما أن الإنزال دفعي، والتنزيل تدريجي. وآية سورة القدر المذكورة جاءت بلفظ: «الإنزال» دون «التنزيل»؛ لأن القرآن أنزل دفعة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم نزل منجماً بحسب المصالح. ولذلك جاءت آية سورة الشعراء بلفظ «التنزيل». ولابن عباس رضي الله عنهما أقوال كثيرة في تقرير هذا التفريق، يكاد القلب يجزم بصحة نسبتها إليه. انظر: «مستدرك الحاكم»: (٢/ ٢٢٢)، و«الجامع لأحكام =

حياة الناس على الحق والعدل والسلام، أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾. [الإسراء: ٩، ١٠]. وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾. [الزمر: ٢٣].

وعلى هذا شواهد نَسُوقها باقتضاب:

* **الأول:** ما رواه محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه رضي الله عنه قال: سَمعتُ النبي ﷺ يقرأ في المغرب

القرآن»: (١/ ٣٣٣)، و«المفردات في غريب القرآن»: (ص/ ٦٠٠)، و«تاج العروس»: (٨/ ١٣٣).

ومن الفوائد هنا؛ أن للقرآن العظيم نزولين: الأول: نزوله جملة، والثاني: نزوله منجماً. فالنزول الأول: من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾. [القدر: ١]. والنزول الثاني: من بيت العزة في السماء الدنيا إلى الرسول ﷺ، لقول الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

انظر للاستزادة: «دراسات في علوم القرآن الكريم» للرومي: (ص/ ١٩١ ـ وما بعدها).

بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾. [الطور: ٣٥، ٣٦]. كاد قلبي أنْ يطير[(١)].

* **الثاني**: ما رواه أهل السِّير، أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه التجأ ليلةً إلى المبيت خارج بيته ـ قبل إسلامه ـ فجاء إلى الحرم، ودخل في سِتر الكعبة، والنبي ﷺ قائم يُصلِّي وقد استفتح سورة «الحاقة» فجعل عمر يستمع إلى القرآن، ويعجب من تأليفه، قال: فقلت ـ أي في نفسي ـ هذا والله

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ٤٨٥٤)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ٤٦٣)، و«تفسير القرآن العظيم»: (ص/ ١٧٧٣) وفيه: «جبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركاً، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك». «قال الخطابي: كأنه انزعج عند سماع هذه الآية لفهمه معناها ومعرفته بما تضمنته، ففهم الحجة فاستدركها بلطيف طبعه، وذلك من قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ قيل: معناه ليسوا أشد خلقاً من خلق السموات والأرض لأنهما خلقتا من غير شيء، أي هل خلقوا باطلاً لا يُؤمرون ولا يُنهون؟ وقيل: المعنى أم خلقوا من غير خالق؟ وذلك لا يجوز فلابد لهم من خالق، وإذا أنكروا الخالق فهم الخالقون لأنفسهم، وذلك في الفساد والبطلان أشدّ؛ لأن ما لا وجود له كيف يخلق، وإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً». انظر: «فتح الباري»: (٢/ ٢١٢٧). قلت: اختلف في وقت إسلامه، والراجح أنه أسلم بين عام صلح الحديبية وقبل عام فتح مكة، وتوفي في خلافة معاوية رضي الله عنه عام (٥٩هـ). انظر: «تهذيب الأسماء واللغات»: (١/ ١٤٦ ـ ١٤٧)، و«الإصابة»: (١/ ٥٠٧).

شاعر كما قالت قريش، قال: فقرأ: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ ﴾، قال: قلت: كاهن. قال فقرأ: ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ ﴾ إلى آخر السورة. قال فوقع الإسلام في قلبي[1].

وقصة إسلامه رضي الله عنه معلومة ومشهورة، عندما قرأ من أول سورة «طه» إلى قول الله تعالى: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤ ﴾. [طه: ١٤].

وقوله: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه؟ دُلُّوني على مُحمَّد[2].

* **الثالث**: ما رواه ابن أبي مليكة ـ رحمه الله تعالى ـ: كاد الخيِّران أن يهلِكا ـ أبو بكر وعمر ـ لما قَدِمَ على النبي ﷺ وفد بني تميم أشاد أحدهما بالأقرع بن حابس التميمي، وأشاد

---

(١) «تاريخ عمر بن الخطاب» لابن الجوزي: (ص/٦). وأورد القصة الإمام أحمد في «المسند»: (١/ ١٧ ـ ١٨)، لكن إسنادها مرسل!، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (١٤/ ١٠٣) وفي إسناده عنعنة أبي الزبير وهو مدلس! و«تفسير القرآن العظيم»: (ص/ ١٩١٦) وفيه: «فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله مؤثرة في هداية عمر»، وقد عوّل ابن كثير على ما جاء في «المسند» مع إرساله، وهي غفلة منه عفا الله عنه.

(٢) «سيرة ابن هشام»: (١/ ٣٤٣)، و«طبقات ابن سعد»: (٣/ ٢٦٧ ـ وما بعدها) وإسنادها ضعيف لضعف القاسم بن عثمان البصري، و«السيرة النبوية الصحيحة»: (١/ ١٨١) وفيه: «وعدم ثبوت الروايات حديثيًا لا يعني حتمية عدم وقوعها تأريخيًا».

الآخر بغيره، فقال أبو بكر لعمر: إنما أردتَ خِلافي، فقال عمر: ما أَرَدتَ خِلافك، فارتفعتْ أصواتهما عند النبي ﷺ، فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾. [الحجرات: ٢]. قال ابن أبي مليكة: قال ابن الزبير: فكان عمر بَعْدُ - ولم يذكر عن أبيه يعني أبا بكر - إذا حدَّثَ النبي ﷺ بحديثٍ حدَّثَهُ كأخي السِّرار لم يُسْمِعْهُ حتى يَسْتَفهِمَهُ»[1].

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - لما نزل قوله تعالى: ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ ﴾ تألَّى أبو بكر ألا يُكلِّم رسول الله ﷺ إلا كأخي السِّرار، فأنزل الله في أبي بكر: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ ﴾. [الحجرات: ٣][2].

* **الرابع**: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: لمَّا نَزَلتْ على رسُولِ الله ﷺ: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾. [البقرة: ٢٨٤].

قال: فاشْتَدَّ ذلكَ على أصْحابِ رسُولِ الله ﷺ فأتَوْا رسولَ الله ﷺ، ثُمَّ برَكُوا على الرُّكب. فقالوا: أي رسول الله؛ كُلِّفْنا من الأعمالِ ما نُطيقُ، الصلاة والصيامُ والجهادُ والصدقة. وقد أُنزلت عليكَ هذهِ الآية، ولا نُطيقُهَا. قالَ رسُولُ الله ﷺ: «أتُريدونَ أن تقولوا كما قال أهلُ الكتابَينِ مِنْ قبلِكُمْ: سَمعنا

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ٧٣٠٢).

(٢) «الدر المنثور» للسيوطي: (٩/ ١٨).

وعصينا؟ بل قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾. فلما اقترأها القومُ ذلَّتْ بها ألسنتُهم. فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾. [البقرة: ٢٨٥].

فلما فَعَلوا ذلك نسخها الله تعالى. فأنزل الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (قال: نَعم) ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ (قال: نَعَمْ) ﴿قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ (قالَ: نَعَمْ) ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ (قالَ: نَعَمْ)[1].

* **الخامس**: ما رواه البراء رضي الله عنه قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾. [البقرة: ٢٦٧]. قال: نزلت فينا معشر الأنصار، كُنَّا أصحاب نخلٍ، فكان الرجل يأتي من نخله على قَدْر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقِنو والقنوين فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاء أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط البسر والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الشيص

---

(١) «مسلم»: (رقم الحديث: ١٩٩).

والحشف وبالقنو قد انكسر فيعلقه، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ﴾.

قال: لو أنَّ أحدكم أُهديَ إليه مثل ما أعطى لم يأخذه إلا على إغماض أو حياء، قال: فكنا بعد ذلك يأتي الرجل بصالحِ ما عنده[1].

لقد تربَّى السلف الصالح على مائدة القرآن، فَنَهَلُوا منْ مَعينهِ، وعَبُّوا مِنْ رَحِيْقهِ، وتزوَّدُوا من مَكْنَزِهِ جيلاً بعد جيل، وأُمَّةً بعد أُمَّة، وقضى الله أن يكسروا به الأكاسرة، ويقصروا به القياصرة، ويُذِلُّوا به الجبابرة؛ لأنهم عملوا بمُحْكَمِهَ وآمنوا بمتشابهه، وأحلُّوا حلاله وحرَّموا حرامه، وكانت صدورهم أناجيل لحفظه، لا يغسلها الماء، ولا يمحوها الهواء.

أفنوا أعمارهم في تَعلُّمه وتعليمه، وتبليغ أحكامه إلى الورى في كل أرضٍ وتحت كل سماء.

أضحوا بهذا القرآن سادة الدنيا وقادتها، فتحوا به الأمصار، وملكوا به الأقطار، حتى بلغوا به من المجد ما بلغ

---

(١) «سنن ابن ماجه»: (رقم الحديث: ١٨٢٢)، وأخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٢٨٥)، وابن جرير في «التفسير»: (٣/ ٨٢)، وإسناده صحيح.

بالليل النهار. ولقد صدَقَ القائلُ: «**فُتحت الأمصار بالسيوف، وفُتحت المدينة بالقرآن**»[1]. فقد أرسل رسولنا ﷺ إلى المدينة: مصعب بن عمير، وعبدالله بن أم مكتوم، يُعلِّمان الناس القرآن، فنزلا عند أسعد بن زرارة، فأغضب هذا سعد بن معاذ ـ سيِّد الأوس ـ قبل إسلامه، حتى قال لابن أخيه «أُسيد بن حضير: ألا تذهب إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يُسَفِّهان ضعفاءنا فتزجرهما، فلما انتهى إليهما أُسيد هدَّدهما وقال: اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة. فقال مصعب: أَوَ تجلس فتسمع؟ فإنْ رضيتَ أمراً قبلته وإن كرهته كففنا عنك ما تكره. فقرأ عليه مصعب القرآن، فاستحسن دين الإسلام، وهداه الله له، فتشهَّد ورجع إلى سعد، فسأله عما فعل. فقال: والله ما رأيت بالرجلين بأساً، فغضب سعد وقام لهما متغيِّظاً، ففعل معه مصعب كسابقه، فهداه الله للإسلام، ورجع لرجال بني عبدالأشهل ـ وهم بطن من الأوس ـ فقال لهم: ما تعدونني فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا؛ قال: كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تسلموا، فلم يبق بيت من بيوت بني عبدالأشهل إلا أجابه. وانتشر الإسلام في دور المدينة حتى لم يكن بينهم حديثٌ إلا أمر الإسلام[2].

(١) «خصائص القرآن الكريم»: (ص/ ١٠٤).
(٢) «سيرة ابن هشام»: (١/ ٤٣٥ ـ وما بعدها)، و«البداية والنهاية»: (٣/ ١٥٢)، =

لقد كانت أمة الإسلام في أول عهدها أُمة محتقرة مستصغرة عند غيرها من أمم الكفر؛ لأنهم يرون المسلمين يعيشون حياة الكفاف، ويعاملون بعضهم معاملة الذلة والمسكنة. وقد نطق كتابنا بهذا في غير ما موضع، قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾. [هود: ٢٧]. وقال سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾. [الشعراء: ٢١٥]. وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾. [الفرقان: ٦٣].

ولم يدَّخر الحاقدون على الإسلام وسعاً في نصب الكمائن، وإيقاع الضرر بالمسلمين بكل حيلة، وبكل أذيَّة من أجل أن ﴿يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾. [التوبة: ٣٢]. وما أمر كسرى ببعيد، فقد مزَّق الرسالة التي بعث بها إليه الرسول ﷺ يدعوه فيها إلى الإسلام[1]، وأعان المرتدين في شرقي الدولة الإسلامية الناشئة، وحمى الفارِّين منهم من وجه الجيوش الإسلامية إلى سواد العراق. وقد ألَّب الفرسُ والرومُ القبائل العربية

= و«عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير»: (١/ ١٥٩).

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ٦٤، ٢٩٣٩)، و«إعلام السائلين عن كتب سيِّد المرسلين»: (ص/ ٦٤). وكسرى المراد هنا هو: «ابرويز بن هرمز بن أنوشروان».

المتاخمة لحدودهم على إخوانهم من المسلمين، فأضحت المناذرةُ والغساسنةُ تُحاربُ جنباً إلى جنب مع الفرس والروم ضد المسلمين العرب[1]! وقد أمر هرقل[2] ـ ملك الروم ـ بقتل كل من أسلم من أهل الشام، وافتتح هجومه على الإسلام بقتل «فروة بن عمرو الجذامي»[3] عامل الروم على

---

(١) المناذرة سلالة عربية حكمت أجزاء من العراق من منتصف القرن الثالث للميلاد إلى مطلع القرن السابع، وكانت على تحالف مع الفرس، وفي حرب مستمرة مع الغساسنة. اعتنق آخر ملوكها «النعمان الثالث أبو قابوس» النصرانية، وتمرَّد على الفرس فخلعوه عن العرش، وزالت دولتهم. أما الغساسنة فهم سلالة عربية نصرانية يرجع نسبها إلى قبيلة قديمة من عرب الجنوب، هجرت اليمن في أواخر القرن الثالث للميلاد. حكمت أجزاء من سوريا قبل ظهور الإسلام، وتحالفت مع البيزنطيين وخضعت لسلطانهم. كان الفتح الإسلامي سبباً في سقوطها سنة ٦٣٦م.

(٢) ويلقب بقيصر، وهو الذي جرت له محاورة مع أبي سفيان وأصحابه، قبل إسلام أبي سفيان رضي الله عنه، وكان ذلك بالشام في سنة (٦هـ). وقد آثر هرقل ملكه على الإيمان، فحارب المسلمين في مؤتة، بالقرب من تبوك، حتى مات على نصرانيته. انظر: «فتح الباري»: (١/ ٢٧٢).

(٣) أمير، آمن بالرسول ﷺ ولم يره، بعث إلى رسول الله ﷺ بعد غزوة تبوك رسولاً يعلمه بإسلامه، وأهدى إليه بغلة بيضاء، فعلم هرقل بإسلامه، فبعث إليه الحارث الغساني فاعتقله وصلبه بفلسطين. وقصة قتله مؤثرة جداً، أوردها ابن هشام في «السيرة»: (٤/ ١٢٣٩)، وابن حجر في «الإصابة»: (٥/ ٢٩٥)، وابن خلدون في «المقدمة»: (٢/ ٢٥٦)، وابن كثير في «البداية»: (٥/ ٨٦).

«مَعَان»[1] لاعتناقه الإسلام ومراسلته لرسول الله ﷺ!

ولما اختلط أعداءُ المِلَّة بالمسلمين في الملاحم والوقائع فطنوا لقوّة الإسلام المعنوية والمادية، وأدركوا أنَّ محمداً ﷺ ربَّى رجالاً، وخرَّج أبطالاً شمَّروا لهذا الدين لينصروه بالمُهَج، لا يُرْهِبُهم قَرْع السيوف، ولا حميم المعارك.

وها هو المغيرة بن شعبة رضي الله عنه يُرِيْ الفرس درساً عمليًّا في عِزَّة المسلم وشُموخه في وجه الكفر وأربابه، بعد أن أبى أهلُهُ الإسلام، وأوصدوا أبوابه، فقد عَبَر القَنْطَرة إلى أهل فارس، فأجلسوه واستأذنوا رستم في إجازته، ولم يُغيِّروا شيئاً من شارتهم تقويةً لتهاونهم، فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم في زيِّهم عليهم التِّيجان والثياب المنسوجة بالذهب، وبُسطهم على غلوة، ولا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها غلوة، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائِر يمشي حتى جلس معه على سريره ووسادته، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه! فقال: كانت تُبْلُغُنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوماً أسفه منكم، إنَّا معشر العرب سواء، لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه، فظننت أنكم تُواسُون قومكم كما نتَواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تُخبروني أنَّ بعضكم أرباب بعض، وأنَّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نَصْنَعُه، ولم آتكم

---

(١) مدينة في جنوب الأردن.

ولكن دعوتموني. اليومَ علمتُ أن أمركم مضمحِلّ، وإنكم مغلوبون، وأنَّ مُلْكاً لا يقوم على هذه السِّيرة ولا على هذه العقول زائل». فقالت السُّوقة: «صدق والله العربيّ»، وقال الزعماء: «لقد رمى بكلام لاتزال عَبيدنا تَنْزع إليه، قاتل الله سابقينا حيث كانوا يُصغِّرون أمر هذه الأمَّة»(١).

لقد كان الأسلافُ الأوائل في القرون المفضَّلة يعون مكانة القرآن ومنزلته وقُوّته في مقارعة الأعداء ومناظرة الخصوم، فأقبلوا عليه يتبصرون معانيه، ويستخبرون معارفه ومراميه، ويلتمسون هديه في تفسيره ونواديه، إيماناً واعتصاماً وانقياداً واتِّباعاً. كما قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾. [آل عمران: ١٠٣]. وحبل الله: القرآن؛ لحديث أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**أبشروا، أبشروا، أليس تشهدون أنَّ لا إله إلا الله، وأنِّي رسول الله**» قالوا: بلى. قال: «**إنَّ هذا القرآن سَبَبٌ طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسَّكوا به فإنكم لن تضلُّوا ولن تهلكوا بعده أبداً**»(٢).

ومن اعتصم بالقرآن فقد اعتصم بالله. قال الله تعالى:

---

(١) «المنتظم في تاريخ الأمم والملوك»: (حوادث سنة ١٤هـ ـ ٤/ ١٦٩).

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه»: (١/ ٣٢٩ ـ رقم الحديث: ١٢٢)، والمنذري في «الترغيب والترهيب»: (١/ ٩٥ ـ رقم الحديث: ٥٩) وإسناده صحيح.

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ . [آل عمران: ١٠١].

وقد أمر الله سبحانه بالإيمان بالقرآن في قوله: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ . [التغابن: ٨]. وكما في قوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ . [الأعراف: ١٥٧]. وكما في قوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ . [النساء: ١٧٤].

فهذه الآيات أمر الله فيها بالإيمان بالقرآن، وقد سمَّاه الله نوراً لما يحصل به من الاهتداء إلى سبيل النجاة وطرق السعادة والكمال. وقد جاء الأمر بالإيمان به على جادَّة «تصريف القول» الإتيان بصريح الأمر تارة، والأخرى ببيان الفضل والرتبة والمكانة.

وكما هو معلوم فإنَّ القرآن المجيد يَتضمَّنُ: العقائد والعبادات والشرائع والأحكام وقصائص الأمم، كما قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ . [النحل: ٨٩]. وكما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ . [الإسراء: ٨٩]. وطريق الهداية أنْ يتَّبع العبدُ وحي الله، فيتلو القرآن، ويُحِلّ حلاله ويُحرِّم حرامه، ويقيم حدوده قبل إقامة حروفه، ويعمل بمحكمه، ويؤمن بمتشابهه. وليحذر أشدّ الحذر من اللغط واللَّغو بحضرة القرآن، والتأكُّل

والتكسُّب بالقرآن، وتعليق المصحف على الأنفس والمواشي، ومحاكاة الجهال في التحرُّك والتمايل والاهتزاز عند القراءة، والله المستعان[1].

إن من أهم ما يُنْصح به السالك في هذا المضمار: أنْ يُحقِّق العبودية التامَّة لله تعالى، بأن تكون قراءته وتلاوته وسائر أفعاله لله وحده لا شريك له، وأن يُفرِّغ قلبه من عبادة غير الله، ويملؤه بعبادة الله وحده، فإذا حقَّق ذلك قَرُب من الله وغَمرهُ سبحانه بالرحمة، وأفاض عليه من العِلم، كما قال سبحانه عن موسى وفتاه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾. [الكهف: ٦٥].

وما أجمل ما قال أبو العباس ابن تيمية: «من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية»[2].

ومما يُعينُ المسلم على تحقيق العبودية: أن يُخْلِص لله في نِيَّاتهِ وسائر أعماله، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾. [الزمر: ١١]. وقول الحبيب ﷺ: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنَى الشُّركاء عن الشِّرك، من عَملَ عملاً أشركَ فيه معي غيري تَركْتهُ وشِرْكه**»[3].

(١) انظر بحثاً نافعاً عن بدع القراء القديمة والمعاصرة لشيخنا بكر أبو زيد في رسالة: «بدع القراء».

(٢) «مدارج السالكين»: (١/ ٤٣١).

(٣) «مسلم»: (رقم الحديث: ٢٩٨٥).

فإخلاص النية عمدة الأعمال التي تترتَّبُ عليها صحتها وفسادها، فمن لم يخلص عمله لله سبحانه فإن عمله مردود عليه، وميزان ذلك ما جاء في مِشكاة النبوة. ولخَّصه الفضيل بن عياض بقوله: «تَرْكُ العمل من أجل الناس رياء، والعملُ من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يُعَافيك الله منهما»[1].

ومما يُكمِّل هذا الباب ويغني المسؤول عن الحيرة في الجواب: متابعة الرسول الكريم ﷺ، والتأسِّي به في كل أعماله صغيرها وكبيرها، كما قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾. [الأحزاب: ٢١].

وما أحسن ما قال الجنيد ـ رحمه الله تعالى ـ: «الطُّرق كلُّها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ، واتَّبع سنته ولزم طريقته، فإنَّ طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه»[2].

فإذا عمل المسلم بهذا المنهج المحكم؛ فقد استحق المثوبة الجزيلة والغبطة الجميلة التي وعد بها رسول العالمين ﷺ في قوله: «**لا حَسد إلاَّ في اثنتين: رجلٌ علَّمه الله القرآن**

---

(١) «مدارج السالكين»: (٢/ ٩١).

(٢) «مدارج السالكين»: (٢/ ٤٦٤).

فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثلما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أُوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل»[١].

وفي قوله ﷺ: «يجيءُ صاحب القرآن يومَ القيامة فيقول: يا ربّ حلّه، فيلبس تاج الكرامة ثم يقول: يا ربّ زده، فَيُلبَّس حُلّة الكرامة، ثم يقول: يا ربّ ارضَ عنه، فيرضى عنه، فيقال له: اقرأ وارقَ، وتزاد بكل آيةٍ حسنة»[٢].

وفي قوله ﷺ: «يُؤتى بالقرآن يومَ القيامة وأهله الذين كانوا يعملونَ به، تَقْدُمُه سورة البقرة وآل عمران، كأنَّهما غَمَامتان أو ظُلّتان بينهما شَرْق، أو كأنهما حِزقان من طيرٍ صوافّ، تحاجّان عن صاحبهما»[٣].

وعن بريدة الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ القرآن وتعلَّمه وعمل به أُلبس يوم القيامة تاجاً من نور، ضوؤه مثل ضوء الشمس، ويكسى والداه حُلَّتين، لا يقوم بهما الدنيا، فيقولان: بِمَ كُسِينا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن»[٤].

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ٥٠٢٦)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ٨١٥).

(٢) «الترمذي»: (رقم الحديث: ٢٩١٥) وإسناده صحيح.

(٣) «مسلم»: (رقم الحديث: ٨٠٥).

(٤) «الحاكم»: (١/ ٥٦٨)، و«أبو داود»: (رقم الحديث: ١٤٥٣)، وإسناده صحيح.

فيا أيها المسلم الأحوذيّ: إنَّ مَنْ كان قبلنا من الصالحين؛ رأوا القرآن رسائل من ربِّهم، فكانوا يتدبرونها بالليل ويُنْفِذُونها في النهار، أحوالهم أكمل الأحوال، وشمائلهم أكرم الشمائل، رفعوا أنفسهم عن كل ما نهى القرآن عنه إجلالاً للقرآن، زينتهم التواضع، وشارتهم خشية الله والخشوع له، مع عِزَّة نفسٍ مؤمنة، وهِمَّة جليلة مخلصة.

* * *

الفصل الثاني
المنهج الصحيح لفهم القرآن المجيد

فهم التنزيل مطلب شريف ومقصد منيف، ولا غرو في ذلك؛ إذ كلام الله تعالى ربيع القلوب ونور الصدور، وجلاء الأحزان وذهاب الهموم[1]، وشرط ذلك الإيمان والاستسلام لله ظاهراً وباطناً. وقد قال أهل العلم: إن الفهم هيئة للإنسان، يتحقق بها معاني ما يحسن[2]. **وللفهم مراتب**:

الأولى: الغريزة والملكة الفطرية في العبد، وهو القدر المشترك بين الجميع.

الثانية: ما كان عن طريق الوحي، لخصوصية العبد، كقول الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾. [الأنبياء: ٧٩]. وهذا الفهم تُسمِّيه العرب عقلاً، وهو أعلى المراتب[3]. وإذا اجتمع مع هذا الفهم: الإيمان الحقيقي،

---

(١) وردت هذه الأوصاف الأربعة في حديث صحيح أخرجه أحمد في «المسند»: (١/ ٣٩١). وإسناده صحيح.

(٢) «المفردات»: (ص/ ٣٨٦).

(٣) «القاموس المحيط»: (ص/ ١٣٣٦)، و«القلب ووظائفه»: (ص/ ٤٢٧).
قلت: وهاهنا فائدة نفيسة وهي أن التعقل عمل من أعمال القلب، فالخطاب مُوجَّه إليه لتقوم به الحجة، فلا يعرف بحال من الأحوال إلا بأفعاله، فهو نور في القلب كالنور في العين، يولد مع الإنسان ويزيد بالتعليم والتجربة، حتى =

والعلم النافع، والعمل الصالح الذي لا يشوبه رياء ولا سمعة؛ فإن الله يفتح على صاحبه بفتح من عنده وهو الفتَّاح العليم. وقد قال الله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾. [فاطر: ٢].

وبهذا المعنى نظم ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ أبياته في

= يكون حجة لازمة للعبد. قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾. [فصلت: ١٧]. وإذا أخذ معنى العقل على اللغة، فالمراد به: الفهم أو مطلق المعرفة. فهو أمر مشترك بين أهل الهدى وأهل الضلال، وبين المطيع والعاصي، وهو فهم البيان، كما قال الله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥]. قال ابن كثير: أي من بعد ما فهموه على الجلية، ومع هذا يخالفونه على بصيرة.

وقد أخبر الله تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، فقد قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ ﴾ [البقرة: ١٤٦]. ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي «ليكتمون الحق»!! وسبب ذلك عدم استجابتهم لنور الله وعدم إذعانهم لشرع الله، فحال الله بينهم وبين قلوبهم، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وللتوسع في هذه المسألة انظر: «بيان الفروق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» للترمذي، و«العقل وفهم القرآن» للمحاسبي: (ص/ ٢١٤ ـ ٢١٦)، و«الأذكياء» لابن الجوزي: (ص/ ١٠)، و«فتاوى ابن تيمية»: (٩/ ٢٧١)، و«إحياء علوم الدين»: (١/ ١٤١)، و«الفروق اللغوية» للعسكري: (ص/ ٧١ ـ وما بعدها)، و«تفسير القرآن العظيم»: (ص/ ٢٢٠ ـ ط ابن حزم.

نونيته، فقال:

وكــــذلــــك الفتَّــــاحُ مـــــن أسمـــــائـــــه
والفتــــحُ فــــي أوصــــافــــه أمــــرانِ
فَتْــــحٌ بحكــــم وهــــو شــــرعُ إلهنَــــا
والفتــــح بــــالأقــــدار فَتْــــحُ ثــــانِ
والــــرَّبُّ فتَّــــاحٌ بــــذيــــن كليهمــــا
عــــدلاً وإحســــانــــاً مــــن الــــرحمــــن(1)

والقرآن العظيم نور ينير الله به القلوب والعقول، كما قال سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧﴾. [الأعراف: ١٥٧]. وذلك النور يحجبه الله تعالى عن اللّاهين المتشاغلين بغير التأمل والفهم، الراكضين في طريق الجهل والعماية والحيرة، المعاندين لله ولرسله عليهم الصلاة والسلام. وباستقراء نصوص الوحيين فإن العبد يُصرف عن الفهم في الحالات الآتية:

١ ـ الكفر بالله تعالى. ٢ ـ الاستهزاء بشرع الله.
٣ ـ المجادلة بالباطل. ٤ ـ الانغماس في الذنوب والمعاصي.
٥ ـ الكذب وردّ الحق. ٦ ـ الغفلة.
٧ ـ سنة الله في خلقه. ٨ ـ الحمق.

(1) «النونية»: (٢/ ١٠٠).

٩ ـ العجلة وترك التثبُّت. ١٠ ـ عدم إدراك دلائل الأمور.
١١ ـ غياب العقل. ١٢ ـ تعطل السمع.

ومن أعظم الأسباب المقوِّيَةِ لمَلِكةِ الفهم: تَجْريد التوحيد لله تعالى بالعلم والعمل، «فمن الناس من نور لا إله إلا الله في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، وآخر كالمشعل العظيم، وآخر كالسِّراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بإيمانهم بين أيديهم على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علماً وعملاً، وكلما اشتدَّ نور هذه الكلمة وعَظُم، أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته»(١).

وقد كان السلف الصالح يتسابقون إلى فهم القرآن المجيد والتنبيه على فضله ومنزلته، كما في هذين المثالين:

الأول: ما رواه ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقالوا: لم يدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم، فأدخلني معهم، فما رأيت إذ دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم. فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية»: (ص/ ٣٧٦).

نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾. [سورة الفتح: ١]. فذلك علامة أجلك، «فسبح بحمد ربك واستغفره إنَّه كان توّاباً». فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول.

وقال قتادة: قال ابن عباس: هذه السورة علم وَحَدٌّ حَدَّه الله لنبيه محمد ﷺ، ونعى له نفسه، أي إنك لن تعيش بعدها إلا قليلاً. قال قتادة: والله ما عاش بعد ذلك إلا قليلاً، ثم توفي[(١)].

الثاني: ما رواه أبو جحيفة قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فَهْمٌ أُعطيه رجلٌ مسلم، أو ما في هذه الصحيفة...»[(٢)].

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ٤٩٧٠)، و«تفسير الطبري»: (٧/ ٧١٢).

(٢) «البخاري»: (رقم الحديث: ١١١).

(لطيفة): يروى أن رافضيًّا سأل «عبدالعزيز بن جعفر غلام الخلال» (المتوفى سنة ٣٦٣هـ) عن قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝٣٣﴾ [الزمر: ٣٣]. **من هو؟ فقال له: أبو بكر الصديق، فردّ عليه وقال: بل هو عليّ! فهمَّ به أصحابه، فقال لهم: دعوه، ثم قال له: اقرأ ما بعدها:** ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۝٣٤ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٣٥﴾ [الزمر: ٣٤، ٣٥]. **وهذا يقتضي أن يكون هذا المصدق ممن له إساءات سبقت، وعلى =**

فالواجب على المسلم العاقل أن يسعى إلى فهم كلام الله تعالى بشروط العلم المعتبرة، وقيوده الصحيحة المحققة، وأن يدأب على التنقير عن كنوزه في آياته وسوره، وألفاظه ومعانيه. ومعلوم أن «من وضع دلالات القرآن وألفاظه مواضعها، تبيَّن له من أسراره وحِكَمِه، ما يبهر العقول، ويعلم معه أنه تنزيل من حكيم حميد»[1].

وإذا صُرِفَ العبد عن الانتفاع بالقرآن المجيد على الوجه الصحيح الذي شرعه الله، فإنَّه سيقع في تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. وقد يُلْزِمُ نفسه بأنواع من القُرَبِ التي لم يأذن الله فيها، وهذا داء عضال أصاب الناس قديماً وحديثاً. وقد أخبر الله في كتابه أنَّ جماعة من أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ عملوا بما يرضي الله على غير هدى من الله، فقال سبحانه: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾. [الحديد: ٢٧].

قال قتادة: «الرهبانية ابتدعها قومٌ من عند أنفسهم، ولم تكتب عليهم، ولكنهم ابتغوا بذلك رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها، حيث رفضوا النساء واتخذوا الصوامع».

= قولك أيها السائل: لم يكن لعلي إساءات، فقطعه. انظر: «طبقات المفسرين» للداودي: (١/ ٣٠٧).

(١) «الرسالة التبوكية»: (ص/ ٢٢٠).

وقال الضَّحاك: «اعتزلوا الناس، وصاروا في الصوامع، فلم يزالوا كذلك حتى غيَّرت طائفةٌ منهم، فتركوا دين الله وأمره وعهده الذي عهد به إليهم، وأخذوا بالبدع، فابتدعوا اليهودية والنصرانية، وثبتت طائفة منهم على دين عيسى عليه السلام، حتى بعث الله محمداً ﷺ، فآمنوا به»[1].

وقد قرَّر ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ هذا المعنى أتمّ تقرير في عباراتٍ لا مَزِيد عليها حيث قال: «من التزم لله شيئاً لم يُلْزِمُهُ الله إيَّاه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه، حتى ألزم كثيرٌ من الفقهاء مَنْ شَرَعَ في طاعةٍ مستحبة بإتمامها، وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وهو إجماع ـ أو كالإجماع ـ في أحد النُّسُكيْن. قالوا: والالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول، فكما يجب عليه رعاية ما التزمه بالنذر وفاءً، يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتماماً، والقصد أنَّ الله سبحانه وتعالى ذم من لم يرعَ قُرْبةً ابتدعها لله تعالى من رعايتها، فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله لعباده وأذن بها وحث عليها»[2]!

وخلاصة القول: إنَّ المنهج الصحيح لِفهم القرآن

---

(١) «تفسير الطبري»: (٧/ ٢٤٠).

(٢) «مدارج السالكين»: (ص/ ١٩٠)، و«بدائع التفسير»: (٤/ ٣٩٢).

المجيد، يَكْمنُ في الأصول الآتية:

أولاً: تحقيق المطالب الإيمانية.

ثانياً: تحقيق المطالب العلمية.

ثالثاً: تحقيق المطالب العملية[1].

---

(١) من اللطائف المفيدة أن يعرف المسلم أن الفهم يزيد بزيادة الإيمان، والدليل على هذا حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: «أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: «إن عبداً خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له. وقال بعض الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر وكان أبو بكر هو أعلمنا به». «البخاري»: (رقم الحديث: ٣٩٠٤).

ومما يوضح هذا الحديث أن الإنسان له قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية. وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوَّتيه العلمية والإرادية، واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه، ومعرفة عيوبها. فبهذه المعارف الخمس يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس أعرفهم بها، وأفقههم فيها، واستكمال القوة العملية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه ـ سبحانه ـ على العبد والقيام بها إخلاصاً وصدقاً، ونصحاً وإحساناً، ومتابعة وشهوداً لمنته عليه، وتقصيره هو في أداء حقه، فهو مستحٍ من مواجهته بتلك الخدمة؛ لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه، ودون دون ذلك، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته، فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم، الذي هدى إليه أولياءه وخاصته، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط، إما بفساد قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في =

وهذا أوانُ الشُّروعِ في المقصود، والله حسبنا ونعم الوكيل.

أولاً: المطالب الإيمانية:

المقصود بالمطالب الإيمانية: تصحيح وتأصيل القول والاعتقاد والعمل، لتكون على جادَّة السلف، حُذْو القُذَّة بالقُذَّة. وقد قال عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله تعالى ـ: «إنَّ للإيمان فرائض وشرائع، وحدوداً وسنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان»[1].

والواجب على المسلم ـ في هذا الباب ـ أمران:

أ ـ اعتقاد ما يعتقده السلف في القرآن الكريم.

ب ـ تصحيح وتأصيل الإيمان في القول والاعتقاد والعمل.

والذي يتأمَّلُ في تاريخ كثيرٍ من الفِرق والجماعات التي تنكَّبتْ منهج أهل السنة والجماعة؛ يجد كثيراً منها لم يُحقِّق

= قوته العملية فيوجب له الغضب».

انظر: «الفوائد» لابن القيم: (ص/١٨ ـ ١٩)، و«القلب ووظائفه»: (ص/٤٤٩).

(١) أورده الإمام البخاري في «صحيحه» تعليقاً في أول كتاب الإيمان. وهذا الأثر وصله الإمام أحمد وابن أبي شيبة في كتاب الإيمان لهما، من طريق عيسى بن عاصم. وقول عمر هذا أصله رسالة بعثها إلى عامله على الجزيرة: «عديّ بن عديّ بن عميرة». انظر: «تهذيب التهذيب»: (١٦٨/٧)، و«فتح الباري»: (٢٧٤/١).

المطالب الإيمانية الصحيحة. فالخوارج مثلاً كانوا يقولون بخلق القرآن، وشبهتهم أنه لم يكن، ثم كان، فهو على هذا محدث، فهو كغيره من المحدثات، ويزعمون في هذا تنزيه الله عن الحوادث. وقالوا بهذا لأنهم يُنْكرون الصفات، ومن صفات الله عز وجل: «الكلام». وهم يريدون نفي ذلك. واستدلوا على خلق القرآن بقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾. [الزمر: ٦٢]. وقوله سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾. [الفرقان: ٥٩].

والفلاسفة وبعضُ غلاة المتصوفة قالوا: كلام الله لا وجود له خارج نَفْسِ الرسول، وإنَّما هو يَفْيضُ على النُّفوس من المعاني، أو هو ما يُفيض من العقل الفعَّال أو غيره. ويقصدون بالعقل الفعَّال: «جبريل» ـ عليه السلام ـ. وقالوا: كلام الله مُحْدَثٌ في نَفْسِ النبي، والكلام الذي سمعه موسى كان موجوداً في نفسه، لم يسمع موسى كلاماً خارجاً عن نفسه!!

والجهميَّة من المعتزلة وغيرهم قالوا: إنَّ الله تعالى لا يقوم به شيءٌ من الصفات: لا حياة، ولا علم، ولا قدرة، ولا كلام، ولا غير ذلك، فلذا فإن كلامه مخلوق، خَلقَهُ في بعض الأجسام، وابتداؤه من ذلك الجسم لا من الله، فلا يقوم بنفسه كلامٌ لا معنىً ولا حروف. وفسَّروا المتكلِّم بأنه:

مَن فَعَل الكلام، ولو في محلٍّ منفصل عنه.

والكلابية قالوا: لم يزل الله تعالى متكلماً، وكلامه صفة له قائمة به، وهو الكلام النفسي[1]، وهو قديم بقدمه تعالى، غير مُتَعلِّق بمشيئته وقدرته، وقيام الكلام به كقيام الحياة والعلم، وليس هو بحروف، ولا يكون صوتاً، ولا يتجزَّأ ويتبعَّض، ولا يتغاير ويتفاضل. والأمر والنهي والخبر عندهم معان محدثة. وقالوا: الحروف المنظومة قراءة القرآن، وهي عبارة عن كلام الله، وهي مخلوقة، وأردفوا: العبارات عن كلام الله تتغاير وتختلف، فيُعبَّر عنه بالعربية كالقرآن، والعبرية كالتوراة، والسريانية كالإنجيل، وكله كلامٌ واحد لا يتغاير، وإنما تغايرت العبارة.

وقالت الأشاعرة بقول الكلابية، لكن قالوا: كلام الله في الأزل أَمْرٌ ونهيٌ وخبر واستخبار، والله تعالى لم يزل آمراً ناهياً مخبراً، وأنَّ هذه صفات للكلام لا أنواع له، وكلام الله القائم بذاته (الكلام النفسي) هو الأمر بكل مأمور، والنهي عن كل منهي عنه، والخبر عن كل مخبر عنه.

---

(١) الكلام النفسي: بدعة ابتدعها الأشاعرة وبعض المعتزلة والفلاسفة، يقصدون منها أن الله يتكلم بمعنى يقوم بذاته، لازم له أزلاً وأبداً. وقالوا إن الألفاظ والحروف ليست كلاماً. انظر: «موقف ابن تيمية من الأشاعرة»: (ص/١٢٦٨). و«العقيدة السلفية في كلام رب البرية»: (ص/٣٥١ ـ وما بعدها).

وقد استدلت المعتزلة على خَلْق القرآن بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾. [الزخرف: ٣]. **وقول الله تعالى**: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ ﴾. [الأنبياء: ٢]. وبقوله **تعالى**: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾. [الأحزاب: ٣٨]. وبقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾. [النساء: ١٧١]. وبقول الله سبحانه: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾. [النحل: ١٠١].
ومن استدلالاتهم العجيبة والمضحكة؛ استدلالهم بقول الله **تعالى**: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾. [القصص: ٣٠]. فقالوا: إنَّ ابتداء الكلام كان من الشجرة! فحرفوا التنزيل، ليُثْبِتُوا التعطيل، وغايتهم من ذلك كله إبطال صفة كلام الباري تعالى!.

قال مُقَيِّدهُ ـ عفا الله تعالى عنه ـ: روى نافع فقال: خَطَبَ الحجَّاجُ الثقفي فقال: إنَّ ابن الزبير يُبدِّل كلام الله تعالى، قال: فقال ابن عمر رضي الله عنهما: «كذب الحجاج، إنَّ ابن الزبير لا يُبدِّل كلام الله تعالى، ولا يستطيع ذلك»(١).

فقول الحجاج هذا ينطبق تماماً على الفِرق الضالَّة التي زاغت عن الحق، ونفت النصوص الصريحة الصحيحة الدالة على أنَّ كلام الله تعالى صفة ذاتية اختيارية، وأنَّ كلامه

---

(١) «الأسماء والصفات» للبيهقي: (ص/ ٢٤٤) وإسناده صحيح.

بصوتٍ وحرف؛ وأنَّ القرآن كلامه، مَنَزَّل غَيْرُ مخلوق.

أما أدلتهم السابقة، فيمكن الجواب عنها في النقاط الآتية:

(١): قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾. [الزمر: ٦٢].

الجواب عن شبهتهم: هذه الآية تدل على أنَّ جميع الأشياء ـ غير الله وأسمائه وصفاته ـ مخلوقة، وفيها ردٌّ على كل من قال بقِدم بعض المخلوقات، كالفلاسفة القائلين بقدم الأرض والسموات، وكالقائلين بقدم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل. وليس كلام الله تعالى من الأشياء المخلوقة، لأنَّ الكلام صفة المتكلم، والله تعالى بأسمائه وصفاته، أول ليس قبله شيء، فأَخْذُ أهل الاعتزال وغيرهم من هذه الآية أنَّ كلام الله مخلوق، من أعظم الجهل، فإنَّه تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يُحْدِث صفة من صفاته، ولم يكن مَعَطَّلاً عنها بوقتٍ من الأوقات. وقد قال الله تعالى عن الريح التي أرسلها على عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾. [الأحقاف: ٢٥]. وقد أتَتْ الريحُ على أشياء ولم تُدمِّرها، كالجبال ونحوها، ولم تُدمِّر هوداً والذين آمنوا معه، كما في قول الله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾، فالمساكن بقيتْ بعد الريح، فكذلك خَلْقُ الله لكل شيءٍ لا يلْزَمُ منه أن يكون القرآنُ مخلوقاً.

(٢) قول الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. [الفرقان: ٥٩].

الجواب عن شبهتهم: يُقالُ لهم: أليس فوق السماوات والأرض شيءٌ مخلوق؟ فإنْ قالوا: لا، فقد جحدوا شيئاً معلوماً من الدِّين بالضرورة، لورود الأدلَّة الصحيحة في ذلك. وإن قالوا: بلى، قلنا: وفي هذه الآية لم يجعل فوق السموات والأرض أشياء مخلوقة، ونحن نعلم أن فوقها: القلم والكرسي والعرش، وأشياء كثيرة. ويُرَدُّ عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾. [الحجر: ٨٥]. فالحق الذي خلق به السموات والأرض موجودٌ قبلهما: وهو «قوله»، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾. [ص: ٨٤]. ويقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾. [الأنعام: ٧٣]. فالحق قوله وليس قوله مخلوقاً.

(٣) قول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾. [الزخرف: ٣].

الجواب عن شبهتهم: الصحيح أنَّ لفظ (جَعَلَ) يأتي بمعنى (خَلَقَ) وبغيره. والقاعدة فيه: أنَّه لا يأتي بمعنى (خلق) إلا إذا تعدَّى إلى مفعول واحد. كقول الله تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾. [الأعراف: ١٨٩]. أما إذا تعدَّى إلى مفعولين فلا يكون بمعنى (خلق) بأيِّ حال، كقول الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾. [البقرة: ٦٦]. ولما قال أحد المعتزلة للإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ إنَّ الله يقول: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾. [الفيل: ٥]. قال الإمام أحمد: أفخلقهم؟!![1]

(٤) قول الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾. [الأنبياء: ٢].

الجواب عن شبهتهم: المقصود بـ(المحدَثْ): الجديد على النَّاس. فالقرآن عندما نزل، كان جديداً على الناس، لم يكونوا عَلِمُوه من قبل. وقد ثبت أنَّ الرسول ﷺ قال: «**إنَّ الله يحدث لنبيه ما شاء، وإن مما أحدث لنبيه: أن لا تكلَّموا في الصلاة**»[2].

فلا دلالة في الآية على أنَّ (المحدث) ـ وهو القرآن ـ مخلوقٌ، بل هو كلامُ الله منه بدأ وإليه يعود.

(٥) قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾. [الأحزاب: ٣٨].

الجواب عن شبهتهم: قولهم إنَّ أمر الله يعني: كلامه، وإنَّ المقدور يعني: المخلوق؛ لا معنى له؛ لأنَّ لفظ: (الأمر) إذا أُضيف إلى الله تعالى يأتي على تفسيرين:

---

(١) «كتاب المحنة»: (ص/٥٣ ـ وما بعدها).

(٢) «أبو داود»: (رقم الحديث: ٩٢٤) وإسناده صحيح.

الأول: يُرادُ به المصدر، كقول الله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. [الأعراف: ٥٤]. وهو غير مخلوق.

الثاني: يُرادُ به المفعول الذي هو المأمور المقدور، كقول الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾. [الأحزاب: ٣٨]. فالأمر هنا هو المأمور.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: «ففي قوله: ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾، المراد به المأمور به المقدور، وهذا مخلوق، وأما في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾. [الطلاق: ٥]. فأمْرُهُ كلامه، إذ لم يُنْزل إلينا الأفعال التي أمرنا بها، وإنَّما أنزل القرآن، وهذا كقوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾. [النساء: ٥٨]. فهذا الأمر هو كلامه»(١).

(٦) قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾. [النساء: ١٧١].

الجواب عن شبهتهم: قالوا: عيسى مخلوق، فالكلمة مخلوقة. والصحيح أنَّ عيسى عليه السلام مخلوق، خلقه الله بأمره حين قال له: «كُنْ»، كما في قول الله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾. [آل عمران: ٤٧]. فكان عيسى بكلمة

---

(١) «فتاوى ابن تيمية»: (٨/ ٤١٢).

الله تعالى وقوله «كن». فالكلمة «كن» لا عين عيسى، والمكوَّن بها هو عيسى عليه السلام.

(٧) قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾. [القصص: ٣٠].

الجواب عن شبهتهم: زعمت المعتزلةُ وغيرهم أنَّ الله تعالى خلق كلاماً في الشجرة التي أتاها موسى فسمعه موسى. وزعموا أنَّ ابتداء الكلام كان من الشجرة!

والصحيح عند أهل العلم أنَّ قوله: «من الشجرة» لابتداء الغاية، نحو قولك: (رأيت الهلال من داري)، و(سمعتُ كلام زيد من البيت)، فليس الهلال في الدار ولا البيت هو المتكلِّم. ومعلوم أنَّ الكلام هو ما قام بالمتكلم لا ما قام بغيره، وقيام الصفة إنما يكون بالموصوف بها لا بغيره، والصفة إذا قامت بمحلّ كانت صفة له لا صفة لغيره. فما خلقه الله تعالى من الصفات في الأشياء ليس من ذلك شيءٌ صفةً له، إنما هي صفات لمخلوقاته. فهو تعالى قد أنطق سائر الأشياء نطقاً معتاداً أو غير معتاد، فأنطق الإنسان والجانَّ وغير ذلك من خلقه نطقاً معتاداً، وأنطق السماوات والأرض وما بينهما نطقاً غير معتاد. وقد قال الراسخون في العلم: إنْ كان التكليم لموسى حصل بواسطة الشجرة، لم يكن له على

من سواه مِمَّن يُوحَى إليه بواسطة الرسول فضل، ولم تكن منزلة التكليم من وراء حِجاب حاصلة لأحد من رسل الله، وهذا تكذيب للقرآن، وإبطال لواضح البرهان[1].

عقيدة السلف في القرآن الكريم

يعتقد أهل السنة والجماعة أنَّ الله عز وجل يتكلَّم ويقول ويتحدَّث وينادي، وأنَّ كلامه بصوتٍ وحرف، وأن القرآن كلامه، مُنزَّل غير مخلوق، وكلام الله صفة ذاتية اختيارية.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾. [النساء: ١٦٤]. وقال سبحانه: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾. [التوبة: ٦].

ومن أقوى الأدلة على أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق، قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾. [الأعراف: ٥٤].

والاحتجاج بهذه الآية من وجهين:

الأول: أنه تعالى فرَّق بين الخلق والأمر، وهما صفتان من صفاته، أضافهما إلى نفسه، أما الخلق ففعله، وأما الأمر فقوله، والأصل في المتعاطفين التغاير إلا إذا قامت القرينة على عدم إرادة ذلك.

---

(١) انظر: «خلق أفعال العباد»: (ص/ ٣٧ ـ وما بعدها)، و«فتاوى ابن تيمية»: (١٢/ ٥٢٢)، و«درء التعارض»: (٢/ ٩٩ ـ وما بعدها)، و«العقيدة السلفية في كلام رب البرية»: (ص/ ٢٩٥ ـ وما بعدها)، و«الخوارج» للسعوي: (ص/ ١٦٧ ـ وما بعدها).

الثاني: أن الخلق إنما يكون بالأمر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾. [يس: ٨٢]. فقوله تعالى: «كن» هو أَمْرُهُ، فلو كان مخلوقاً لاحتاج خَلْقُهُ إلى أمر، والأمْرُ إلى أمْر، إلى ما لا نهاية، وهذا باطل[١].

ومن الأدلة أيضاً قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾﴾. [الرحمن: ١ ـ ٣]. ففرَّق تعالى بين عِلْمه وخَلْقِه، فالقرآن عِلْمه، والإنسان خَلْقُهُ، وعِلْمُهُ تعالى غير مخلوق.

وقد قيل للإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ قَومٌ يقولون: إذا قال الرجل: كلام الله ليس بمخلوق، يقولون: مَنْ إمامك في هذا؟ ومن أين قلت: ليس بمخلوق؟ فقال: الحجة قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾. [آل عمران: ٦١]. فما جاءه غير القرآن. وقال: «القرآن من علم الله، وعلم الله ليس بمخلوق، والقرآن كلام الله ليس بمخلوق، ومثل هذا في القرآن كثير. والقرآن عِلم من علم الله، فمن زعم أنَّ علم الله مخلوق فهو كافر»[٢].

---

(١) «العقيدة السلفية»: (ص/١٢٢)، و«شرح العقيدة الواسطية» لابن عثيمين: (١/ ٤٢٧ ـ وما بعدها).

(٢) «المسائل» برواية ابن هانىء: (٢/ ١٥٣ ـ وما بعدها).

وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال: «من نَزَلَ مَنْزلاً ثم قال: **أعوذُ بكلمات الله التَّامَّات من شرِّ ما خلق، لم يضرّه شيء حتى يرتحل من منزله ذلك**»[1].

فلو كانت كلمات الله مخلوقة لكانت الاستعاذة بها شركاً؛ لأنها استعاذة بمخلوق، ومن المعلوم أن الاستعاذة بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته شرك، ولا يصحُّ شرعاً ولا عقلاً أنْ يُعلِّم النبي ﷺ أُمَّته ما هو شرك ظاهر ـ وحاشاه من ذلك ـ وهو الذي جاءهم بالتوحيد الخالص!

وما أجمل ما قال عمرو بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ: «أدْرَكْتُ أصحاب النبي ﷺ فمن دونهم منذ سبعين سنة، يقولون: الله الخالق، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله، منه خرج وإليه يعود»[2].

فيا أيها الأحوذيّ: اعلم أنَّ الله تكلَّم بالتوراة، وبالإنجيل، وبالزبور، وكلَّم أنبياءه، ومن كلام الله القرآن العظيم، وهو سُوَرٌ مُحكمات، وآياتٌ بَيِّنات، وحروف وكلمات. له أول وآخر، وأجزاء وأبعاض، متلوّ بالألسنة، محفوظ في الصدور، مسموع بالآذان، مكتوب في

(١) «مسلم»: (رقم الحديث: ٢٧٠٨).

(٢) «الرد على الجهمية»: (رقم الأثر: ٣٤٤)، و«سنن البيهقي»: (١٠/ ٢٠٥)، وإسناده صحيح.

المصاحف، فيه محكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، وخاص وعام، وأمر ونهي[1].

● **تصحيح الإيمان وتأصيله بالقول والاعتقاد والعمل[2]:**

لا يخفى على كل ذي لُبِّ أن حدّ الإيمان وتفسيره: التصديق الجازم، والاعتراف العام بجميع ما أمر الله ورسوله بالإيمان به، والانقياد ظاهراً وباطناً. فهو تصديق القلب واعتقاده المتضمِّن لأعمال القلوب وأعمال البدن، وذلك شامل للقيام بالدِّين كله[3].

وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال: «**الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[4].

فالواجب على المسلم أن يراعي حقوق الإيمان في قلبه ولسانه وبدنه، ليُحقِّق العبودية الصحيحة الشاملة، على ضوء نصوص الوحيين. وقد أحصى جماعة من العلماء، كالقاضي

---

(١) انظر: «**لمعة الاعتقاد**»: (ص/ ١٢).

(٢) المقصود بـ«التصحيح»: إزالة شوائب الإيمان ومُعوِّقاته، و«التأصيل»: تثبيت المعتقد الصحيح والاستقامة على ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠]، ولقوله ﷺ: «قل آمنت بالله ثم استقم». [أخرجه مسلم].

(٣) «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان»: (ص/ ١٥).

(٤) «البخاري»: (رقم الحديث: ٩)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ٣٥).

عياض، وابن حِبّان، وابن حجر ـ رحم الله الجميع ـ كثيراً من شُعب الإيمان للعمل والانتفاع بها، لا للحصر على سبيل العدِّ والتَّعيين، فإنَّ التكلُّف هنا ممنوع ومحظور، وبالله التوفيق.

فأعمال القلب: فيه المعتقدات والنّيات، وتشتمل على «أربع وعشرين خصلة»:

١ ـ الإيمان بالله، ويدخل فيه: الإيمان بذاته وصفاته وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء، واعتقاد حدوث ما دونه.

٢ ـ والإيمان بملائكته.

٣ ـ وكتبه.

٤ ـ ورسله.

٥ ـ والقدر خيره وشره.

٦ ـ والإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه: المسألة في القبر، والبعث، والنشور، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة، والنار.

٧ ـ ومحبة الله.

٨ ـ والحب والبغض فيه.

٩ ـ ومحبة النبي ﷺ، واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه: الصلاة عليه، واتباع سنته.

١٠ ـ والإخلاص، ويدخل فيه: ترك الرياء والنفاق.
١١ ـ التوبة.
١٢ ـ والخوف.
١٣ ـ والرجاء.
١٤ ـ والشكر.
١٥ ـ والوفاء.
١٦ ـ والصبر.
١٧ ـ والرضا بالقضاء.
١٨ ـ والتوكل.
١٩ ـ والرحمة.
٢٠ ـ والتواضع، ويدخل فيه: توقير الكبير، ورحمة الصغير.
٢١ ـ وترك الكبر والعجب.
٢٢ ـ وترك الحسد.
٢٣ ـ وترك الحقد.
٢٤ ـ وترك الغضب.

وأعمال اللسان، وتشتمل على سبع خصال:
١ ـ التلفظ بالتوحيد. ٢ ـ وتلاوة القرآن.
٣ ـ وتعلُّم العِلم. ٤ ـ وتعليمه.
٥ ـ والدعاء. ٦ ـ والذِّكر، ويدخل فيه: الاستغفار.
٧ ـ واجتناب اللغو.

وأعمال البدن، وتشتمل على «ثمان وثلاثين خصلة»:

منها ما يختص بالأعيان: وهي «خمس عشرة خصلة»:
١ ـ التطهر حِسّاً وحُكْماً. ويدخل فيه: اجتناب النجاسات.
٢ ـ وستر العورة. ٣ ـ والصلاة فرضاً ونفلاً.
٤ ـ والزكاة كذلك. ٥ ـ وفك الرقاب.
٦ ـ والجود. ويدخل فيه: إطعام الطعام، وإكرام الضيف.
٧ ـ والصيام فرضاً ونفلاً. ٨ ـ والحج والعمرة كذلك.
٩ ـ والطواف. ١٠ ـ والاعتكاف. ١١ ـ والتماس ليلة القدر
١٢ ـ والفرار بالدين. ويدخل فيه: الهجرة من دار الشِّرك.
١٣ ـ والوفاء بالنذر. ١٤ ـ والتحرِّي في الأيمان.
١٥ ـ وأداء الكفَّارات.

ومنها ما يتعلق بالاتباع، وهي «ست خصال»:
١ ـ التعفف بالنكاح. ٢ ـ والقيام بحقوق العيال.
٣ ـ وبر الوالدين. وفيه: اجتناب العقوق.
٤ ـ وتربية الأولاد. ٥ ـ وصلة الرحم.
٦ ـ وطاعة السادة. ٧ ـ أو الرفق بالعبيد.

ومنها ما يتعلق بالعامة، وهي «سبع عشرة خصلة»:
١ ـ القيام بالإمرة مع العدل. ٢ ـ ومُتابعة الجماعة.
٣ ـ وطاعة أولي الأمر.
٤ ـ والإصلاح بين الناس. ويدخل فيه: قتال الخوارج والبغاة.
٥ ـ والمعاونة على البر. ويدخل فيه: الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر.
٦ ـ وإقامة الحدود. ٧ ـ والجهاد، ومنه: المرابطة.
٨ ـ وأداء الأمانة، ومنه: أداء الخمس.
٩ ـ والقرض مع وفائه. ١٠ ـ وإكرام الجار.
١١ ـ وحسن المعاملة. وفيه: جمع المال من حِلّه.
١٢ ـ وإنفاق المال في حقِّه. ومنه: ترك التبذير، والإسراف.
١٣ ـ ورد السلام. ١٤ ـ وتشميت العاطس.
١٥ ـ وكفّ الأذى عن الناس. ١٦ ـ واجتناب اللهو.
١٧ ـ وإماطة الأذى عن الطريق.

فهذه تسع وستون خصلة، ويمكن عدُّها تسعاً وسبعين خصلة باعتبار أفراد ما ضم بعضه إلى بعض مما ذكر، وبالله التوفيق[١].

فقد رأيتَ ـ وفَّقك الله ـ أعلى الإيمان وأصله وقاعدته: وهو قول: «لا إله إلا الله» اعتقاداً وتألهاً، وإخلاصاً لله، ورأيت أدناه: وهو إماطة الأذى من شوكٍ وعظمٍ وكل ما يؤذي عن الطريق.

وقد سأل أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ رسول الله ﷺ عن الإيمان: فتلا عليه قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ

(١) «فتح الباري»: (١/ ٧١ ـ وما بعدها)، و«حاشية التوضيح والبيان لشجرة الإيمان»: (ص/ ٣٥).

﴿قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ . . .﴾ . [البقرة: ١٧٧][1].

وقد أشار الحق تبارك وتعالى إلى أنَّ القرآن بدلائله وحججه وشرائعه ومواعظه: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ . [الإسراء: ٩]. وأنه ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ . [الإسراء: ٨٢]. شفاء من الجهل والضلال والشَّك والوساوس: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ . [الإسراء: ٨٢]. فالكفَرةُ الفَجَرة والمنافقون المخادِعون لا ينتفعون بالقرآن المجيد، لإعراضهم عن الإيمان وتكبُّرهم على الحق والهدى، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ . [الإسراء: ٤٥، ٤٦]. فالحجاب يمنع رؤية الحق، والأكنَّة تمنع من فهمه، والوَقْر يمنع من سماعه.

والشاهِدُ هُنا: أنَّه لا سبيل إلى الانتفاع بالقرآن المجيد إلا بتصحيح وتأصيل القول والاعتقاد والعمل. فالقول قول السلف، والاعتقاد اعتقادهم، والعمل عملهم، كما جاء في الأصلين: الكتاب والسنة.

فالسلف الصالح أعلم الأمة وأعرفها بالله ربّ العالمين. وقد قال الجنيد بن محمد ـ رحمه الله تعالى ـ: «علمنا هذا مُقيَّد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث،

(١) «الشريعة» للآجري: (ص/١٢١) وقال: «وبهذا الحديث وغيره احتج أحمد بن حنبل في كتاب الإيمان: أنه قول وعمل، وجاء به من طرق».

لا يصلح له أن يتكلَّم في عِلْمنا»[1]. وقال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله تعالى ـ: «إنه لتمرّ بقلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين اثنين: الكتاب والسنة»[2].

وتأمَّل ـ رحمني الله وإيَّاك ـ ما قاله أبو عبدالله البجلي ـ رضي الله عنه ـ: «كُنَّا غِلْماناً حزاوِرة مع رسول الله ﷺ، فتعلَّمنا الإيمان قبل أن نتعلَّم القرآن، ثم تعلَّمنا القرآن فازددنا به إيماناً»[3].

وقوله ـ رضي الله عنه ـ «فتعلَّمنا الإيمان»: المراد به الإيمان الشرعي الجامع للإقرار والتصديق والعمل، ودليل هذا الآية القرآنية: «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله...». وقد تقدَّمت قريباً.

وهاهنا نكتةٌ بليغة يَحْسُنُ إيرادها، وهي أنَّ الأعمال تدخل في مسمَّى الإيمان، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾. [البقرة: ١٤٣]. أي: صلاتكم التي صليتموها إلى بيت المقدس قبل التحوُّل إلى الكعبة.

والإيمان عند التفصيل يشمل خمسة أمور:

١ ـ قول اللسان وهو نطقه بالشهادتين.

---

(١) «الصفدية»: (١/ ٢٥٤).

(٢) «درء التعارض»: (٥/ ٣٤٩).

(٣) «الإبانة» لابن بطة: (رقم الأثر: ١١٢٢)، و«السنة» لعبدالله ابن الإمام أحمد: (رقم الأثر: ٧٩٩).

٢ ـ عمل اللسان وهو ذكر الله، والنطق بالكلم الطيِّب عموماً.
٣ ـ قول القلب وهو تصديقه.
٤ ـ عمل القلب من المحبة والخوف والرجاء.
٥ ـ عمل الجوارح في البدن من اليدين والرِّجْلين وبقيَّة أجزاء البدن.

وبعض الناس يظن أنَّ شُعب الإيمان مختصة بأعمال القلوب، وهذا فهم قاصر وإدراك باطل، وقد بيَّن الرسول ﷺ أنَّ الأعمال الظاهرة تُعَدُّ إيماناً كما في حديث وفد عبد القيس، وفيه:

«آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم»[١].

كما أنَّ الأعمال الباطنة تعد إيماناً، كما في حديث جبريل عليه السلام عندما سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان، فقال: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**[٢].

«والذين انحرفوا في باب الإيمان، إنَّما كان ضلالهم بسبب قصرهم الإيمان على بعض ما يشتمل عليه كما فعلت

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ٥٣)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ١٧).
(٢) «البخاري»: (رقم الحديث: ٥٠)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ٩).

المرجئة بأصنافهم، أو غلوّهم بجعلهم جميع شعب الإيمان شرطاً في صحته كما فعلت الوعيدية من الخوارج والمعتزلة.

فمن المرجئة طائفة قالت: إنَّ الإيمان قول باللسان فقط، أي أن من قال: لا إله إلا الله، يكون مؤمناً دون النظر إلى أعماله وقلبه، فمادام أنه قال: لا إله إلا الله. فهو مؤمن حقًّا، وهذا مذهب الكرامية أتباع ابن كرام السجستاني.

وعلى قول هؤلاء يكون المنافق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر مؤمناً؛ لأنه يقول: لا إله إلا الله، وهذا مخالف للنصوص الدالة على كفر المنافقين وإن قالوا ونطقوا.

وهناك طائفة أخرى قالت: إنما الاعتبار بمعرفة القلب، فالإيمان عندهم هو المعرفة، فمن عرف الله، وعرف الرسول فهو مؤمن، وهذا قول الجهمية ومن وافقهم، وهذا قول باطل لأنه يلزم منه أن كل من عرف الله فهو مؤمن ولو ارتكب كفراً، وإبليس كان عارفاً بالله لكنه كفر بالإباء والاستكبار حين طلب منه ربه السجود لآدم، فأبى واستكبر وكان من الكافرين.

وكذلك فرعون كان عارفاً بالله، قال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾. [النمل: ١٤]. وقال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾. [الإسراء: ١٠٢].

إذن فتعريف الجهمية للإيمان بأنَّه المعرفة؛ تعريف باطل؛ لأنه يلزم منه أن يكون إبليس وفرعون مؤمنين، لأنهما عارفان بالله.

فرقة أخرى قالت: الإيمان هو التصديق، وهذا مذهب جمهور الأشعرية والماتريديه، فيقال لهم: ليس هناك فرق بين التصديق والمعرفة التي قال بها الجهمية، وإبليس وفرعون كانا مصدقين، واليهود في زمن النبي ﷺ كانوا مصدقين في قلوبهم أن محمداً رسول الله، ومع ذلك فلا شك في كفرهم جميعاً.

وما ذكره أصحاب هذا القول: من الفرق بين المعرفة والتصديق هو فرقٌ ضعيف جداً، وأكثر العقلاء لا يدركونه، ثم إن فرعون كان مصدِّقاً، بل الله سبحانه وتعالى سمى تصديقه يقيناً فقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾. [النمل: ١٤]. واليقين تصديق جازم، ومع ذلك كانوا كفاراً وإن كانوا مصدقين، فكيف تقولون: إن الإيمان هو التصديق فقط دون أمور أخرى لابدَّ منها في الإيمان؟

ومرجئة الفقهاء: أبو حنيفة وأصحابه ـ رحمهم الله تعالى ـ قالوا: الإيمان هو قول باللسان، واعتقاد بالقلب فقط، ولم يدخلوا العمل في مسمى الإيمان.

فيقال لهم: إنَّ النصوص الصريحة الصحيحة دلَّت على

دخول أعمال الجوارح في مسمَّى الإيمان، فتعريفكم ناقص، وأنتم ـ رحمكم الله ـ وإن أوجبتم العمل لكن أخرجتموه عن مسمَّى الإيمان، إلا أنَّ إخراجكم له مخالف للنصوص الصحيحة الصريحة.

وقابلَ طوائفَ المرجئة طائفةٌ جعلوا الإيمان قول اللسان، واعتقاد القلب، وعمل الجوارح، لكن قالوا: إن من ترك شيئاً من عمل الجوارح ـ بارتكاب كبيرة أو ترك واجب ـ فهو خارجٌ من الإيمان مُخلَّد في النار، وهذا انحراف كبير، وضلال مبين وقع فيه الوعيدية من الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم. وكلامهم باطل من وجوه كثيرة جداً، منها: أن الأدلة دلت على أنَّ القاتل والزاني وشارب الخمر مؤمنون وإن أُقيمت عليهم الحدود الواردة في حقِّهم، ولو كانوا كفَّاراً بهذه الكبائر لوجب قتلهم على كل حال، وهذا مناقِض لنصوص الكتاب والسنة»[1].

ومن اللطائف في باب الإيمان ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾. [الأنفال: ٢ ـ ٤].

(١) «تيسير لمعة الاعتقاد»: (ص/ ٢٥٣ ـ وما بعدها).

ففي هذه الآية خَمسُ صفاتٍ للمؤمن الحقّ:

الأولى: وجَلُ القلوب عند ذكر الله تعالى.

الثانية: زيادة الإيمانِ عند تِلاوة الآيات.

الثالثة: التوكُّل.

الرابعة: إقامة الصلاة.

الخامسة: الإنفاق في سبيل الله.

وهذه الصفات الخمس يُمكن تلخيصها في كلمتين تنتظم حياة المسلم كلُّها: المجاهدة والمراقبة. والقرآن من أوَّله إلى آخره إنما هو دعوة وتقرير لهاتين الخصلتين: جهاد النيَّات، وجهاد الإرادات، وتمام حفظهما بالمراقبة كما سيأتي بيانه إن شاءالله تعالى[1].

وقد قال بعض السلف: مَنْ كَرُمَ عليه دينه هانت عليه نفسه. وبيان ذلك أنَّ أصل مجاهدة النفس فطمُها عن المألوفات، وحملها على غير هواها. فإن للنفس صفتين: انهماكٌ في الشهوات، وامتناعٌ عن الطاعات. فالمجاهدة تقع بحسب ذلك. قال بعضُ الأئمة: جهاد النفس داخلٌ في جهاد

---

(١) انظر تفصيلاً مفيداً عن أعمال القلوب ودورها في تثبيت العلم والعمل في: «العبودية» لابن تيمية: (ص/ ٥٤ ـ وما بعدها)، و«مدارج السالكين» لابن القيم: (١/ ٤١١)، و«مفتاح دار السعادة» لابن القيم: (٢/ ٩٠ ـ وما بعدها)، و«منهج الإسلام في تزكية النفس» لكرزون: (١/ ١١٩ ـ وما بعدها) وهذا الكتاب مفيد جدًّا في هذا الباب.

العدو، فإن الأعداء ثلاثة: رأسهم الشيطان، ثم النفس لأنها تدعو إلى اللذات المفضية إلى الوقوع في الحرام الذي يُسخطُ الرب، والشيطان هو المُعينُ لها على ذلك ويزيِّنه لها. فمن خالف هوى نفسه قَمَع شيطانه، فمجاهدةُ نفسه حَملُهَا على اتباع أوامر الله، واجتناب نواهيه. وإذا قوي العبد على ذلك سَهُلَ عليه جهادُ أعداء الدين، فالأول: الجهاد الباطن، والثاني: الجهادُ الظاهر. وجهاد النفس أربعُ مراتب: حَملُها على تعلُّم أمور الدين، ثم حملها على العمل بذلك، ثمَّ حملها على تعليم من لا يعلمُ، ثم الدعاء إلى توحيد الله، وقتال من خالف دينه وجحد نعمهُ. وأقوى المعين على جهاد النفس جهاد الشيطان بدفع ما يُلقي إليه من الشبهة والشك، ثم تحسين ما نهي عنه من المحرمات، ثم ما يُفضي الإكثار منه إلى الوقوع في الشبهات، وتمامُ المجاهدة أن يكونَ متيقظاً لنفسه في جميع أحواله، فإنه متى غَفَلَ عن ذلك استهواه شيطانه ونفسهُ إلى الوقوع في المنهيَّات وبالله التوفيق[1].

وقال الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ: «قد اتفق العلماء على أن لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا بنهي النفس عن الهوى، ومُخالفة الشهوات. فالإيمانُ بهذا واجب. وأمّا عِلْمُ تفصيل

---

(١) «فتح الباري»: (١١/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦).

ما يُتركُ من الشهواتِ وما لا يتركُ فلا يُدركُ إلا بطريق الشرعَ وطريقِ المجاهدة. والرياضة لكل إنسان تختلفُ بحسب اختلافِ أحوالِه. والأصلُ فيه أن يَتْرُكَ كلُّ واحدٍ ما به فَرَحُهُ من أسبَابِ الدنيا. فالذي يفرح بالمال، أو بالجاه، أو بالقبول في الوعظ، أو بالعز في القضاء والولاية، أو بكثرة الأتباع في التدريس والإفادة، فينبغي أن يَترك أولاً ما به فَرَحُهُ، فإنه إن مُنِعَ عن شيء من ذلك وقيلَ له: ثوابُكَ في الآخرة لم يَنْقُص بالمنع، فَكَرِه ذلك وتألَّم به فهو ممن فَرِحَ بالحياةِ الدُّنيا واطمأنَّ بها؛ وذلك مُهلكٌ في حَقِّه. ثم إذا تركَ أسبابَ الفَرح فليعتَزِلِ الناسَ، ولينفَرِدْ بنفسِهِ، وليُراقِبْ قلْبَهُ، حتى لا يشتَغِلَ إلا بذكرِ الله تعالى والفِكْرِ فيه. وليترصَّدْ لما يبدُو في نفسهِ منْ شهوَةٍ ووسواسٍ، حتى يقمَعَ مادتَّهُ مهما ظَهرَ، فإنَّ لكل وسْوَسَةٍ سبباً، ولاً تَزولُ إلا بقَطْعِ ذلك السببِ والعلاقَةِ. وليُلازِمْ ذلك بقيَّةَ العُمْرِ فليسَ للجهادِ آخِرٌ إلا بالموْتِ»[1].

وقال ابنُ حَجَر ـ رحمه الله تعالى ـ في شرح حديث ربيعةَ بن كعبٍ عندما سأل النبي ﷺ المُرافَقةَ في الجنةِ: جاهَدَ نفسَهُ بكثرةِ سُجُودهِ فحَصَلَتْ له تلك الدَّرَجةُ العليَّةُ التي لا مَطْمَعَ في الوصولِ إليها إلا بمزيدِ الزُّلفَى عندَالله في الدُّنيا بكثـرةِ السُّجـودِ المُـومَـإِ إليـه بقـولـه تعـالـى: ﴿وَٱسْجُدْ

(١) «إحياء علوم الدين»: (٣/ ٦٧ ـ ٦٩).

وَٱقۡتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾. [العلق: ١٩]. فكلُّ سجدةٍ فيها قُرْبٌ مخصوصٌ لتكفُّلها بالرقي إلى درجة من درجات القُرْبِ وهكذا حتى ينتهي إلى درجةِ المرافقة لحبيبه ﷺ[١].

إذا تبيَّن هذا فإنه لا استقامة للعبد في أمر دينه ودنياه إلا بتمام المراقبة، كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله[٢]، وكما في حديث جبريل ـ عليه السلام ـ عندما سأل الرسول ﷺ عن الإحسان، فقال: «**أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكنْ تراهُ فإنَّه يَراك**»[٣].

والمراد بالمراقبة: دوام معرفة العبد بأن الله تعالى مُطَّلعٌ على ظاهره وباطنه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقوله. وقد قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «أربابُ الطريق مجمعون على أنَّ مراقبة الله تعالى في الخواطر سَبَبٌ لحفظها في حركات الظواهر، فن راقب الله في سِرِّه حفظه الله في حركاته، في سِرِّه وعلانيته»[٤].

فيا أيُّها الأحوذي: إنَّ الخُطَّة التي ينبغي عليك أن تسلكَها لتنتفع بالقرآن، هي الاستفادة من الإيمان، كما قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم**

---

(١) «دليل الفالحين»: (١/ ٣١٨).

(٢) «البخاري»: (رقم الحديث: ٦٦٠)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ١٠٣١).

(٣) «البخاري»: (رقم الحديث: ٥٠)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ٩).

(٤) «مدارج السالكين»: (٢/ ٦٦)، و«المنهج السلفي»: (ص/ ١٧٥).

﴿بِإِيمَٰنِهِمْۖ﴾. [يونس: ٩]. وهنا حَذَفَ المُتعلِّق، ليشمل هدايتهم لفعل كل خير. وهدايتهم لترك كل شر، وذلك بسبب إيمانهم، وإذا كان الإيمان اسماً جامعاً لشرائع الإسلام، وأصول الإيمان وحقائق الإحسان، أو هو الدِّين كله، فإنَّ أعظم مطلوب هُنَا أن تتلمَّس المواد التي تجلب الإيمان وتُقوِّيه، والأخرى التي تضعفه وتوهنه. فأما ما يُقوِّي الإيمان فأمران: مُجْمَل ومُفصَّل. فالمجمل:

- **التدبُّر لآيات الله المتلوة من الكتاب والسنة.**
- **التأمل لآيات الله الكونية على اختلاف أنواعها.**
- **الحِرص على معرفة الحق الذي خلق له العبد.**
- **العمل بالحق**(١).

ولا يخفى عليك ـ في هذه المحاور الأربعة ـ صلة الإيمان بالقرآن، قولاً واعتقاداً وعملاً. وسيأتي لهذا مزيد إيضاح في الصفحات اللاحقة إن شاءالله تعالى.

ومقوِّيات الإيمان على التفصيل كثيرة، أعظمها: معرفة أسماء الله الحسنى كما وردت في النصوص الصحيحة، والحرص على فهم معانيها، والتعبُّد لله بها. وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا**

---

(١) «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان»: (ص/ ٥٠)، و«شرح العقيدة الواسطية» لابن عثيمين: (٢/ ٢٣٤).

واحداً، **من أحصاها دخل الجنة**»[1]. ولا سبيل إلى إحصائها إلا بالتدبُّر والتمعُّن في نصوص الوحيين.

ومعلوم أنَّ الأسماء الحسنى تتضمَّن أنواع التوحيد الثلاثة:

١ ـ توحيد الربوبية.

٢ ـ وتوحيد الألوهية.

٣ ـ وتوحيد الأسماء والصفات.

ومن مقوِّيات الإيمان: تدبُّر القرآن العظيم، وإطالة النظر في مقاصده[2] وأحكامه، وهداياته، والوقوف على بلاغته

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ٢٧٣٦)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ٢٦٧٧).

(٢) المقاصد الرئيسة للقرآن ثلاثة: الأول: أن يكون هداية للثقلين: الجن والإنس، وتمتاز هداية القرآن بالعموم والتمام والوضوح. فعمومها كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾. [الأنعام: ١٩]. وتمامها بإكمال الدين وإتمام النعمة كما قال سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾. [المائدة: ٣]. ووضوحها يكمن في الإقناع وصدق الإخبار وصحة النتائج وبلاغة الأحكام، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾. [الروم: ٥٨]. وقول الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ=

وإعجازه[1]، وقد قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ

= كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾. [الأنعام: ١١٥].
الثاني: أن يقوم القرآن آية لتأييد النبي ﷺ، حيث جاء آية شاهدة برسالة محمد ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾. [الإسراء: ٨٨]. ومن دلالات صدق القرآن بقاؤه محكماً دقيقاً رغم مرور القرون الطويلة التي ظهر فيها الجديد والغريب، مما يدهش الأبصار، ويُحيِّر الألباب، فسبحان القائل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾. [النساء: ٨٢]. الثالث: أن يتعبد الله خلقه بتلاوة هذا الطراز الأعلى من كلامه المقدس، فيتعلموا ويعملوا ويفقِّهوا الناس في شتى أرجاء المعمورة، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾. [فاطر: ٢٩، ٣٠]. وكما قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾. [التوبة: ١٢٢].
انظر: «مناهل العرفان»: (٢/ ٢٠)، و«أهداف كل سورة ومقاصدها»: (ص/ ٣٠).

(١) بلاغة القرآن وإعجازه من القضايا التي غفل عنها المتأخرون، لاسيما في دروس المساجد ومحاضن التعليم المختلفة. فيا ليت أصحاب الشأن في المساجد ودور التربية والتعليم يُنبِّهون المسلمين على أوجه بلاغة القرآن وإعجازه، ويدلونهم على المواضع التي تقوي الإيمان وترسخه في الفؤاد، وتقود النفوس إلى عبودية الله بالعلم والعمل. ولقد قال «أحمد بن أبي الحواري» المتوفى سنة ٢٣٠هـ): «إني لأقرأ القرآن فأنظر في آية فيحار عقلي فيها، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الرحمن؟ أما لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه، =

﴿مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾. [النساء: ٨٢].

ومن مُقوِّيات الإيمان: طلب العلم الشرعي المحقَّق من الأصلين: الكتاب والسنة، فبهما يزول الجهل والرَّيب وكل شبهةٍ خطَّافة(١). ومن تأمل في القرآن فإنَّه يلحظ أن الله تعالى جمع بين العلم والإيمان في مواضع عديدة، كقول الله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾. [آل عمران: ٧]. ، وقوله سبحانه ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾. [آل عمران: ١٨]. وقوله سبحانه: ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾. [النساء: ١٦٢]. وكقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾. [الإسراء: ١٠٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾. [الحج: ٥٤]. وكقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾. [الروم: ٥٦]. وكقوله

= وتلذذوا به، واستحلوا المناجاة به، لذهب عنهم النوم، فرحاً مما رزقوا ووفقوا».
والمصنفات في هذا الباب كثيرة، جلُّها لا يخدم معتقد أهل السنة والجماعة. ويعد كتاب «بيان إعجاز القرآن» للخطابي (المتوفى سنة ٣٨٨هـ) من الكتب الجيدة عند أهل السنة، ويمكن الإفادة منه، على الرغم من هفواته اليسيرة التي لا تقدح في عمله. ومن مصنفات المعاصرين النافعة: «البلاغة فنونها وأفنانها»، أنصح بمطالعته والإفادة منه.

(١) انظر: «القواعد التأصيلية» لراقمه.

سبحانه: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾. [سبأ: ٦]. وكقوله سبحانه: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾. [المجادلة: ١١].

ومن مُقوِّيات الإيمان: الوقوف على سيرة الرسول ﷺ، والتعرُّف على هديه وأحواله ومعاملته مع القريب والبعيد[(١)]، وقد قال الله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾. [المؤمنون: ٦٩]. وقال سبحانه: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾. [سبأ: ٤٦]. وإذا اجتمع الإخلاص والصدق في طلب الحق من سيرة المصطفى ﷺ؛ فإن الإيمان ثمرة مُتحقِّقة، وإن غاب الاثنان فهذا دليل الخُسْران والخِذْلان. وفي حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ هرقل تحدَّث إلى وفد قريش، فسألهم عن نسب الرسول ﷺ وصدقه وحاله وحال أتباعه، وكاد هرقل أن يُسْلِم لكن مَنَعَتهُ الرئاسة وخشية زوال مُلْكِهِ[(٢)]. وعلى النقيض من

---

(١) انظر كتاب: «زاد المعاد» لابن القيم رحمه الله تعالى. وأقترح أن يُقرأ هذا الكتاب على الأسرة في البيت يوميًا بمعدل صفحتين لكل يوم، لتكون سيرة الرسول ﷺ أمام أعيننا في كل حين.

(٢) راجع تفصيل هذه المسألة في: «فتح الباري»: (١/ ٢٧٢ ـ ط بيت الأفكار الدولية).

ذلك آمن النجاشيُّ ـ رضي الله عنه ـ وأقرَّ برسالة الرسول ﷺ عندما أخلص في طلب الحق، وكان صادق الإرادة في التعرُّف على دعوة الإسلام الحنيفيَّة. والله المستعان[1].

ومن مُقوِّيات الإيمان: التفكر في الكون، والتفكر في كثرة نِعم الله وآلائه العامة والخاصة، ومن مُقوِّيات الإيمان: الإكثار من ذكر الله في كل وقت، والإحسان إلى الخلق بالقول والفعل، والتأمل في محاسن الدِّين وشمائله.

إذا تبيَّن هذا فإنَّ الأسباب التي تُضعف الإيمان وتُوهِنهُ أعظمها: الشبهات والشهوات القادحة في علوم الإيمان، كشبه المبتدعة، وشبه المتكلِّمة، وشبه المناطقة، وشبه الصوفية، وشبه أهل الضلال عموماً ـ نعوذُ بالله من سُوءِ حالهم ـ الذين لم يفقهوا مراد الله في أمره ونهيه. والواقعون في الشبه والأمور المستغلقة هم أصحاب القلوب المنكوسةِ والمصفحةِ كما وصفهم الرسول ﷺ: «**القلوب أربعة: قلب أجْرَد فيه مِثل السِّراج يَزْهَرُ، وقلب أغْلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُصْفَحٌ. فأما القلب الأجرد: فقلب المؤمن، سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف: فقلب**

---

(١) ملك الحبشة اسمه «أصحمة بن أبحر»، والنجاشي لقب له. أسلم على عهد النبي ﷺ ولم يهاجر إليه. ولما توفي ـ رضي الله عنه ـ صلى عليه الرسول ﷺ صلاة الغائب. انظر عن سيرته وشمائله: «تهذيب الأسماء واللغات»: (٢/ ٢٨٧)، و«أسد الغابة»: (١/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨)، و«العبر»: (١/ ١٠).

الكافر، وأما القلب المنكوس: فقلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأما القلب المُصْفَح: فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقْلة يمدُّها الماء الطيِّب، ومثل النفاق فيه كمثل القُرْحة يمدُّها القَيْح والدم، فأيُّ المادتين غلبت على الأخرى غلبتْ عليه»[1].

أما الشهوات فمجموعها الفجور والرذائل الخلقية، وقد أشار إليها ربُّنا تعالى في قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾. [الأحزاب: ٣٢]. وهي أعظم الآفات البدنية وأقواها وصَباً وأطولها زمانةً.

والترياق الذي لا ضِماد معه هو: التربية الإيمانية الصحيحة، بترسيخ التقوى في الفؤاد مع تجريد التوحيد للواحد الديَّان، واللهج بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، ومحاسبةُ النفس على مثاقيل النَّظرات والخطوات، وإماطة الحظوظ والرغبات الأرضية السفلية؛ ليحظى العبد بلطف الرحمن، فيقول له الملك عند السِّياق[2]: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى

---

(١) «مسند أحمد»: (٣/ ١٧)، و«الإيمان» لابن أبي شيبة: (رقم الحدث: ٥٤) وإسناده حسن.

(٢) السياق يكون في وقتين: الأول عند خروج الروح، والثاني عند دخول الجنة، وهذا الخطاب خاص بالمؤمنين. انظر: «تيسير الكريم الرحمن»: (ص/ ٨٥٥).

جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾. [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

ثانياً: تحقيق المطالب العلمية:

المقصود بالمطالب العلمية: إدراكُ معاني القرآن وتفهُّمها تدبُّراً وتفكُّراً على ضوء عقيدة السلف الصالح. ولا سبيل إلى هذه الوجوه إلا بالتلاوة والقراءة والترتيل. والفرق بينها: أنَّ التلاوة: قراءةُ القرآن متتابعاً كالأوراد والأسباع. والقراءة: جَمْعُ الكلمات وأداؤها باللسان.

أما الترتيل: فهو تلاوة القرآن تلاوة بالتأنِّي، لتبيين الحروف ولإفهام المعاني.

والقراءة أعمّ من التلاوة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوةً. ويميل بعض العلماء إلى القول بأن التلاوة خاصة بالقرآن مع الاتِّباع، وليست القراءة كذلك. وفرَّق فريق من العلماء فقالوا: الأداء: الأخذ عن المشايخ، والقراءة تُطلق على الأداء والتلاوة[1].

والتلاوة في القرآن على خمسة أوجه:

الأول: القراءة: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾. [آل عمران: ٩٣].

الثاني: الاتِّباع: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾﴾. [الشمس: ٢].

الثالث: العمل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾. [البقرة: ١٢١].

---

(١) «كشاف اصطلاحات الفنون»: (١/ ٢٤٤)، و«المفردات» للراغب: (ص/ ٧٥).

الرابع: الرِّواية: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾. [البقرة: ١٠٢].

الخامس: الإنزال: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾. [القصص: ٣][1].

ومن المفيد هنا أنْ نذكِّر المسلم بمراتب التلاوة، وهي خمس مراتب:

الأولى: الترتيل.

الثانية: التدوير.

الثالثة: الحدر.

الرابعة: التحقيق.

الخامسة: الزمزمة.

ويكاد يجمع العلماء على أنَّ أفضل أنواع التلاوة: الترتيل والتدوير.

وقد رغَّب القرآن الكريم في الترتيل وحثَّ عليه، قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾. [المزمل: ٤]. قال ابن عباس: «معناه: بيِّنه»، وقال مجاهد: «تأنَّ فيه». وقال الضحاك: «انبذه حرفاً حرفاً، كأن الله تعالى قال: تثبَّت في قراءتك وتمهَّل فيها وافصل الحرف من الحرف الذي بعده»[2].

---

(١) «نزهة الأعين النواظر»: (ص/ ٢٢١ ـ ٢٢٢)، و«معاني القرآن» للزجاج: (١/ ٤٧٠).

(٢) «نهاية القول المفيد»: (ص/ ١٦).

قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ: يُرادُ بترتيل القرآن: تلاوته تلاوةً تُبيِّن حروفها ويُتَأنَّى في أدائها، ليكون ذلك أدنى إلى فهم المعاني[1].

والترتيل: القراءة بتُؤدة واطمئنان وإخراجُ كل حرفٍ من مَخْرجه، وإعطاؤه حقَّه ومستحقه مع تدبُّر المعاني[2]. وهذه المرتبة تُعينُ القارىء كثيراً على التدبُّر والتفكر والاستنباط.

أما الحَدْر: فهو إدراج القراءة وسرعتها مع مراعاة أحكام التجويد.

وقد سئل الأهوازي ـ رحمه الله تعالى ـ عن الحدر فقال: الحدر هو القراءة السمحة العذبة الألفاظ التي لا تخرج القارىء عن طباع العرب العَرْباء وعما تكلَّمت به الفصحاء بعد أن يأتي بالرواية عن إمام من أئمة القراءة.

والتدوير: هو التوسُّط بين الحَدْر **والترتيل**.

أما التحقيق: فهو إعطاء الحروف حقَّها من إشباع المدِّ، وتحقيق الهمز وإتمام الحركات، وتوفية الغُنَّات وتفكيك الحروف، أي بيانها. وإخراج بعضها من بعض بالسكت والترسُّل والتؤدة، والوقف على الوقوف الجائزة، والإتيان بالإظهار والإدغام على وجهه.

---

(١) «فتح الباري»: (٨/ ٧٠٧).

(٢) «البرهان في تجويد القرآن»: (ص/ ٦).

وأكثر الباحثين يُوصونَ المتعلِّمين بالأخذ بهذه المرتبة، لاسيما عند ابتداء الطلب، بشرط أن لا يُتجاوز به حدّ الإفراط.

والزَّمْزَمة: القراءة في النَّفس خاصة. أو صوت القارىء من صدرِه، إذا أطبق لسانه وشفته[1].

وقد أجاب الجزري ـ رحمه الله تعالى ـ عن مسألة مهمة، وهي: أيهما أفضل: الترتيل مع قِلَّة القراءة أو السرعة مع كثرة القراءة؟ فقال: الصواب ما عليه معظم السلف والخلف، وهو أنَّ الترتيل والتدوير مع قلة القراءة أفضل من السرعة مع كثرتها؛ لأن المقصود من القرآن فهمه والتدبُّر فيه والعمل به، وتلاوته وحِفْظه وسيلة إلى فهم معانيه[2].

وقال مُقيِّده ـ عفا الله تعالى عنه ـ: الأولى للمسلم ـ لا سيَّما المشتغل بالعلم ـ أنْ يأخذَ مِنْ كل مرتبة من مراتب التلاوة بنصيب، ثم يُوطِّن نفسه على لزوم الترتيل والتدوير مع التدبُّر والتعقُّل لوجوه الآيات والسور، مشياً على جادَّة السلف في التفقُّه والطلب.

ولقد نبَّه على هذا المعنى ابن عبدالبر ـ رحمه الله تعالى ـ حين قال: «طلب العلم درجاتٌ ورُتَب لا ينبغي تعدِّيها، ومن

(١) «نهاية القول المفيد»: (ص/ ١٥ ـ ١٦).

(٢) «نهاية القول المفيد:»: (ص/ ١٧).

تعدَّاها جملةً فقد تعدَّى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدَّى سبيلهم عامداً ضلَّ، ومن تعداه مجتهداً زلّ»[1].

والضابط هنا ألا يزيد في قراءته على عشرة أجزاء في اليوم الواحد، لقول الحبيب ﷺ: «**لم يَفْقَه من قرأ القرآن في أقلَّ من ثلاث**»[2].

ولا ينبغي للمسلم أن يقرأ أقلّ من جزء واحد في كل يوم، لقول الحبيب ﷺ: «**اقرأ القرآن في كل شهر**»[3].

ويتأكد هذا في حق طلبة العلم والمشتغلين بالدعوة وتفقيه الناس.

ولقد شاع عند كثير من المسلمين ظاهرةٌ تجلب الأسى والحزن، وهي عدم المواظبة على قراءة القرآن الكريم سوى في المواسم والأيام الفاضلة، وهذه الظاهرة سببها عدم تربية النفس على القراءة اليومية المنظمة التي تجعل القرآن واجباً يوميًّا لا مَحِيد عنه.

وتأمَّل معي قول أوس بن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: لقد أبطأ علينا رسول الله ﷺ ذاتَ ليلة، فقلت: يا رسول الله: لقد

---

(١) «جامع بيان العلم»: (٢/١٦٦).

(٢) «الترمذي»: (رقم الحديث: ٢٩٤٦)، و«ابن ماجه»: (رقم الحديث: ١٣٤٧)، وأحمد في «المسند»: (٢/١٦٥، ١٨٩) وإسناده صحيح بشواهده.

(٣) «مسند أحمد»: (٢/١٦٥، ١٨٩)، و«أبو داود»: (رقم الحديث: ١٢٣٧)، وإسناده صحيح.

أبطأتَ علينا الليلة. قال: «**إنَّه طرأ عليَّ حِزبي من القرآن فكرِهتُ أن أخرج حتى أُتمّه**»[(١)].

والحزب النبوي: مقدار محدَّد من القراءة اليومية يتيح للمسلم ختم القرآن في سبعة أيام على النحو التالي:

اليوم	مقدار القراءة
السبت	من سورة "البقرة" إلى سورة "النساء".
الأحد	من سورة "المائدة" إلى سورة "التوبة".
الاثنين	من سورة "يونس" إلى سورة "النحل".
الثلاثاء	من سورة "الإسراء" إلى سورة "الفرقان".
الأربعاء	من سورة "الشعراء" إلى سورة "يس".
الخميس	من سورة "الصافات" إلى سورة "الحجرات".
الجمعة	من سورة "ق" إلى سورة "الناس".

وكان السلف الصالح يُسَمُّون هذه الطريقة «تسبيع القرآن» أي تقسيم القرآن إلى سبعة أسباع. قال ابن جماعة ـ رحمه الله

(١) «ابن ماجه»: (رقم الحديث: ١٣٤٥)، و«مسند أحمد»: (٩/٤) وإسناده ضعيف.

تعالى ـ: «قراءة القرآن في كل سبعة أيام وِرد حسن، ورد في الحديث، وعمل به أحمد بن حنبل»[1].

دليل مراجعة حفظ القرآن الكريم:

إذا كنت ممن أكرمك الله بحفظ كتابه، وتخشى من تفلُّت محفوظك وضياع مقروئك، فالزم هذا المنهج، لتأمن النِّسيان والحَرَج.

١ ـ احفظ أو راجع يوميًّا وجهاً واحداً من المصحف تقرؤه على النحو الآتي:

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم»: (ص/ ٢٢)، و«فتح الباري»: (٩/ ٥١).
قلت: أكمل الطرق المعينة على تلاوة الذكر الحكيم؛ هي التمسُّك بوصية الرسول الكريم ﷺ حين قال لعبدالله بن عمرو: «اقرأ القرآن في كل شهر». وهذه الطريقة لها فوائد: أولها: الاحتساب بالعمل بوصية الرسول ﷺ، والثانية: تنبيه القارىء برقم الجزء الحالي الموافق للتاريخ اليومي، ففي اليوم الأول من الشهر يقرأ الجزء الأول، وفي اليوم العاشر يقرأ الجزء العاشر حتى يختم قراءة المصحف كاملاً. ومن أراد أن يقرأ جزءاً كاملاً كل يوم، فالأولى والأكمل، أن يقرأه دفعة واحدة، ولا يقسمه على نوبات متقطعة. فمن خلال التجربة وسؤال أهل العلم؛ يتبين أن من يسلك هذه الطريقة الأخيرة؛ يضيع كثيراً من حق التلاوة المقرَّرة، وقد يقطع التلاوة بالكلية، نسأل الله العافية. وانظر: «مقدمة ابن خلدون»: (ص/ ٥٣٤).

الصلاة	عدد الركعات	القراءة
الظهر	٤	٢
العصر	٤	٢
المغرب	١	١
العشاء	٢	١
قيام الليل	١٣	٦
صلاة الضحى	٤	٢
السنن الراتبة	١٢	٦
	٤٠	٢٠

٢ ـ اقرأ محفوظك غيباً في الصلوات السرية، وفي الركعات الأخيرة من الصلوات الجهرية، وفي قيام الليل، إضافة إلى صلاة الضُّحى والسنن الراتبة.

٣ ـ قَسِّم قراءة المحفوظ في كل مرَّة إلى قِسمين. ففي صلاة الظهر مثلاً: اقرأ نصف المحفوظ في الركعة الأولى، وأكمله في الركعة الثانية، وفي الركعتين الثالثة والرابعة أعد القراءة من جديد إن تيسَّر لك ذلك.

٤ ـ هذا الدليل له فائدتان:

الأولى: الجمع بين الصلاة والقراءة، وهو ما رغَّب فيه ربُّنا الرحمن بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ

وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾. [فاطر: ٢٩]. وكان مطرِّف ـ رحمه الله تعالى ـ إذا قرأ هذه الآية يقول: «هذه آية القُرَّاء»[١].

الثانية: مجاهدة النفس على المداومة على النوافل، والسنن الرواتب، وقيام الليل. وهي مما هجره كثير من النَّاس، وإلى الله المشتكى.

٥ ـ هذا الدليل يُتيح لك استذكار محفوظك يوميًّا (٢٠) مرَّة عل أقلِّ تقدير، في أربعين ركعة، «فينبغي للعبد أن يُواظب على هذا الوِرد دائماً إلى الممات، فما أسرع الإجابة، وأعجل فتح الباب لمن يقرعه كل يوم وليلة أربعين مرَّة»[٢].

٦ ـ إذا داومت على الحِفْظ والمراجعة بهذه الهيئة، فإنَّك ستختم القرآن كاملاً ـ إن شاءالله تعالى ـ خلال واحدٍ وعشرين شهراً، وتذكَّر قول الخطيب البغدادي ـ رحمه الله تعالى ـ: «لا تأنس بالعمل ما دُمْتَ مستوحِشاً من العِلم، ولا تأنس بالعلم ما كُنْتَ مقصِّراً في العمل، ولكن اجمع بينهما، وإن قلَّ نصيبك منهما»[٣].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: (ص/ ١٥٥٥ ـ ط ابن حزم).

(٢) «زاد المعاد»: (١/ ٣٢٧).

(٣) «اقتضاء العلم العمل»: (ص/ ١٤).

كيف تنتفع بالقرآن؟

إذا أردتَ الانتفاع بالقرآن فاجعل معانيه بين عينيك في حِلِّك وترحالك، ومَغْداك ومراحك، لتستخرج منه العِبَر وتستنبط منه الحِكم. تأمل إشاراته، وتبيَّن دلالاتِه، مع تحقيق غاياته وتعهُّد واجباته. حدِّق بقلبك إلى معانيه، واجمع فكرك في ألفاظه ومراميه. تعقَّل آياته، وانظر أوامره ونواهيه، تدبَّر أقواله وتفكَّر في عِظاته وأمثاله، كما قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾. [ص: ٢٩]. وكما قال جل شأنه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾. [المؤمنون: ٦٨].

وكلما كان قلب المسلم حيًّا وسَمْعُهُ شاهداً، فإن انتفاعه يكون أعظم وأكمل. فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «**اقرأ عليَّ**» قلت: أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «**فإنِّي أُحبُّ أن أسمعه من غيري**» فقرأتُ عليه سورة النساء، حتى بلغتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾. [النساء: ٤١]. قال: «**أمسِك**» فإذا عَيْنَاه تذرفان»[١].

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «الربُّ تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

أحدهما: النظر في مفعولاته.

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ٥٠٥٠)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ٨٠٠).

الثاني: التفكُّر في آياته وتدبُّرها.

فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة. فالنوع الأول كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾. [آل عمران: ١٩٠]. والثاني كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾. [النساء: ٨٢][1].

وخير طريق للتدبُّر في كتاب الله، أن يقرأ العبد كلام الله بخشوع وتؤدة، وأن يقف عند رؤوس الآيات، فيُعيدَ النظر في أول الآية وآخرها، مُتأمِّلاً متبصِّراً في ألفاظها ومعانيها، وأن يحذر من هاجس السآمة والملل من طول الوقت في التفكُّر والنظر. ثم إنَّ معرفة التفسير وأسباب النزول ومعرفة غريب القرآن، ووجوه قراءاته، ونحوه وإعرابه ومعانيه، من أقوى العُدَد وأكرم المَدَد التي يُوفِّقُ الله العبد بها لفهم كتابه.

روي أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ذكر جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ ووصفه بالعِلم، فقال رجل: جُعلت فداك، تَصف جابراً بالعلم وأنتَ أنتَ؟ فقال: إنه كان يعرف تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾. [القصص: ٨٥].

وقال عكرمة ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. [النساء: ١٠٠]: طلبتُ اسم

---

(١) «الفوائد»: (ص/ ٣١ ـ ٣٢).

هذا الرجل الذي خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، أربع عشرة سنة حتى وجدته، واسمه: «ضمرة بن حبيب» رضي الله عنه.

وما أجمل ما قال إياس بن معاوية ـ رحمه الله تعالى ـ: «مَثَلُ الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب. ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤوا ما في الكتاب»[1].

فيا أيها المسلم الحصيف: تنسَّم نصوص التنزيل، وأدمِن الفِكر في كلام العليّ الجليل، وتدثَّر بدِثَار المؤمنين الصادقين في تواضعهم للعلم والدين، «والتواضع للدِّين ـ ألا يعارِض المسلم ـ بمعقولٍ منقولاً، ولا يتهم للدين دليلاً، ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً. والتواضع للدِّين: هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ والاستسلام له والإذعان، وذلك بثلاثة أشياء:

الأول: ألا يُعارض شيئاً مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم، المسماة بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

الثاني: ألا يتهم دليلاً من أدلة الدين، بحيث يظنه فاسد

---

(١) «المحرر الوجيز» لابن عطية: (١/ ٢٦ ـ وما بعدها).

الدلالة، أو ناقص الدلالة أو قاصرها، أو أن غيره كان أولى منه. ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه، والبليَّة فيه.

وهكذا في الواقع حقيقة: أنه ما اتهم أحدٌ دليلاً للدين إلا وكان المتهم هو الفاسد الذهن، المأفون في عقله وذهنه. فالآفة من الذهن العليل لا في نفس الدليل. وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك، وينبو فهمك عنه فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك، وأن تحته كنزاً من كنوز العلم، فلم تُؤتَ مفتاحه بعد، هذا في حق نفسك. وأما بالنسبة إلى غيرك، فاتّهم آراء الرجال على نصوص الوحي وليكن ردها أيسر شيء عليك للنصوص، فما لم تفعل ذلك فلست على شيء. قال الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يحلّ له أن يدعها لقول أحد.

الثالث: ألا يجد إلى خلاف النص سبيلاً البتة، لا بباطنه، ولا بلسانه، ولا بفعله، ولا بحاله، بل إذا أحسَّ بشيء من الخلاف فهو كخلاف المقدم على الزنا، وشرب الخمر، وقتل النفس. بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك، وهو داع إلى النفاق وهو الذي خافه الكبار والأئمة على نفوسهم»[1].

---

(١) «مدارج السالكين»: (٢/٢٣٨).

وقد جازى الله أقواماً بكبرِهم واحتقارهم النَّاس؛ فأبعد قلوبهم وعقولهم عن فهم كتابه، كما قال سبحانه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. [الأعراف: ١٤٦][1].

فأضحوا لا يفقهون آيات الله الأفقية والنفسية، ولا يفهمون كلام الله في الصحف النورانية، فما أعظم رزيتهم، وما أشدَّ بليتهم؟!

مسالك التدبُّر:

اعلم رحمك الله وسدَّدك أنَّ تدبُّر القرآن المجيد، له مسالكُ لطيفة ومراقٍ شريفة، ينفُذُ منها المخلصُ إلى فهم معاني التنزيل، ويُشرف من خلالها على العمل بكلام الله الجليل.

فالقارىء والتالي والمنصتُ والمستمعُ لكلام الله المجيد، هَمُّهم وأملهم الوقوف على مقاصد كلام الله، من أجل تحقيق توحيد الله، والظَّفر برضا الله تعالى، ومعلوم أنَّ محلّ التدبُّر هوالقلب، وقلوب الناس ثلاثة:

الأول: قلبٌ ميِّت، وصاحبه عند التحقيق لا قلب له،

---

(١) توعد الله من يتكبر على الحق والخلق، بإبعادهم عن فهم القرآن خاصة وفهم الآيات العامة، فلا سبيل إلى اعتبارهم بالحجج وتصديقهم بالدلائل، وقد قال سبحانه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾. [الأعراف: ١٤٦]. انظر: «تفسير الطبري»: (٣/ ٦٧٠)، و«الجامع لأحكام القرآن»: (٧/ ١٠٠)، و«زاد المسير»: (٣/ ٢٦٠).

وهو بمنزلة الأعمى الذي لا يُبْصر.

الثاني: قلب حيٌّ مستعد، لكن صاحبه غير مستمع للآيات المتلوّة، التي يُخبرُ الله بها عن الآيات المشهودة، إمَّا لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، وقلبه مشغول عنها بغيرها. وصاحب هذا القلب لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

الثالث: قلبٌ حيّ مستعدّ، تُليت على صاحبه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضرَ قلبه، ولم يشغلهُ بغير فهمِ ما يَسْمَعهُ، فهو شاهدُ القلبُ، ملقي السمع، وصاحبُ هذا القلب هو الذي ينتفع بالآيات المتلوّة والمشهودة.

فاعلم أنَّ الرجل قد يكون له قلب وقَّاد، مليء باستخراج العِبَر، واستنباط الحِكَم، فَهذَا قلبه يُوقعهُ على التَّذكر والاعتبَار، فإذا سمع الآيات كانت له نُوراً على نور. وهؤلاء أكملُ خلق الله. وأعظمهم إيماناً وبصيرة، حتى كأن الذي أخبرهُم به الرسولُ مشُاهد لهم، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه، حتى قيل: إنَّ مثل حال الصِّدِّيق مع النبي ﷺ، كمثل رجلين دخلا داراً، فرأى أحدهما تفاصيل ما فيها وجزئياته، والآخر وقعت يده على ما في الدار أو لم ير تفاصيله ولا جُزئياته، لكن عَلِمَ أنَّ فيها أمُوراً عظيمة، لم يدرك بَصرُهُ تفاصيلها، ثُم خَرَجَا فسألَهُ عمَّا رأى في الدار

فجعلَ كلما أخبره بشيء صدَّقه، لما عنده من شواهد، وهذه أعلى الدرجات الصديقية، ولا تستبعد أن يمنَّ الله المنانُ على عبدٍ بمثل هذا الإيمان. فإن فضل الله لا يدخل تحت حصرٍ ولا حُسبان.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نورٌ من البصيرة ازداد بها نوراً إلى نوره. فإن لم يكن للعبد مثلُ هذا القلب فألقى السمعَ وشهدَ قلبهُ ولم يغب حصلَ لهُ التذكُّرُ أيضاً ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾. [البقرة: ٢٦٥]. والوابل والطلُّ في جميع الأعمال وآثارها وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقرَّبون وأصحاب يمين، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما[1].

ولابن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا المعنى كلامٌ نفيس، إذ يقول: «قرأتُ هذه الآية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾. [الأنعام: ٤٦]. فلاحتْ لي إشارةٌ كِدتُ أطيش منها، وذلك أنه إنْ كان عُني بالآية نفسُ السمع والبصر، فإن السمع آلةٌ لإدراك المسموعات، والبصر آلة لإدراك المبصرات، فهما يعرضان ذلك على القلب فيتدبَّر ويعتبر، فإذا عُرِضت المخلوقات على السمع والبصر أوصلا إلى القلب أخبارها، وأنَّها تدلُّ على

---

(١) «مدارج السالكين»: (١/ ٤٧٥ ـ وما بعدها).

الخالق، وتحملُ على طاعة الصانع، وتُحذرُ من بطشه عند مخالفته. وإنْ عُني معنى السمع والبصر، فذلك يكون بذهولهما عن حقائق ما أدركا، لأنهما شغلا بالهوى، فيعاقب الإنسان بسلب معاني تلك الآلات، فيرى وكأنَّه ما رأى، ويسمع وكأنه ما سمع»[1].

إذا تبيَّنَ هذا فإنَّ التعقُّل عملٌ من أعمال القلب، فالخِطاب مُوجَّهٌ إليه لتقوم به الحجة، فلا يُعْرَفُ بحالٍ من الأحوال إلا بأفعاله، فهو نور في القلب كالنور في العين، يُولَدُ مع الإنسان ويزيد بالتعلُّم والتفكُّر، حتى يكون حجةً لازمة للعبد، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾. [فصلت: ١٧].

فيا أيُّها الأحوذي: إذا رُمتَ تدبر كتاب الله تعالى، فالزم هذه المسالك، مراعياً ترتيبها كما في هذا الشكل:

النظر	التفكر	التأمُّل	الفهم	التثبُّت	الاستنباط	الاعتبار
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧

التوضيح:

أولاً: عند تلاوتك لكتاب الله تعالى، أو الإنصات

(١) «صيد الخاطر»: (ص/ ١١٤) بتصرف يسير.

لقراءته، أقبل بقلبك وبصيرتك ومعرفتك على كلام الله تعالى، فإنَّ القرآن العظيم «يُسْتَبْصَرُ به في جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول، فمن تفكر وتدبَّره، علم أنه تنزيل من حكيم حميد»(١).

واعلم أنَّ النظر يقع على الأجسام والمعاني، فما كان بالأبصار فهو للأجسام، وما كان بالبصائر كان للمعاني(٢). والبصيرة هي قوةُ القلب، وهي اسم لما أُعتقد في القلب من الدِّين وتحقيق الأمر(٣).

وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾. [الأنعام: ١٠٤]. واعلم رحمك الله أنَّ النظر والتبصُّر في غير وقته لا ينفع صاحبه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾. [السجدة: ١٢].

والنَّظر أوّل أوعية القلب، فإنْ كان النظر لنيةٍ صالحةٍ وبهمَّةٍ صادقةٍ، فإنَّ القلب يعي الحق والهدى، وقد قال ﷺ: «**القلوب أوعيةٌ وبعضها أوعى من بعض**»(٤).

---

(١) «تفسير ابن سعدي»: (ص/ ٢٧٦).

(٢) «لسان العرب»: (٥/ ٢١٨)، و«بصائر ذوي التمييز»: (٥/ ٨٢ ـ ٨٤).

(٣) «بصائر ذوي التمييز»: (٢/ ٢٢٣).

(٤) «مسند أحمد»: (٢/ ١٧٧)، و«جامع الأصول»: (٤/ ١٥٣) وإسناده حسن.

ثانياً: اجعل قلبك يتصرَّفُ في معاني الآيات لإدراكها، وهذا هو حقيقة التفكُّر الذي أراده الله من عباده، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾. [النحل: ٤٤]. فأعمِل خاطرك في فهم كلام الله بإرادة صادقة لتنال مراد الله تعالى، فيحيا قلبُك وينشرح صدرُك، وتَعْظُم خشيتُك لله تعالى، فإنَّ «أنفع الفِكرِ الفِكرُ في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابها. ورأس هذا القسم التفكُّر في آلاء الله ونعمه، وأمره ونهيه، وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنة نبيِّه وما والاهما، وهذا الفكر يُثْمرُ لصاحبه المحبة والمعرفة...». ومن فضائل الفكر أنَّه «مِفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته، لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره»[1].

ثالثاً: اجمع فكرك على تدبُّر القرآن لتعْقلهُ، وحدِّق بناظر قلبك إلى معانيه لتتعظ وتتذكَّر. إنَّ هذا هو حقيقةُ تأمّل كلام الله[2].

وقد كان هذا هو حال رسول الله ﷺ، فعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: صليتُ مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح

(١) «إحياء علوم الدين»: (٤/ ٤٢٣).

(٢) «مدارج السالكين»: (١/ ٤٨٥ ـ ٤٨٧).

البقرة، فقلتُ: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يُصلِّي بها في ركعة. فمضى، فقلتُ: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مُتَرَسِّلاً، إذا مرّ بآيةٍ فيها تسبيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوُّذ تعوَّذ[1].

وكان السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ يواظبون على هذه الفضيلة. فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّه كان إذا تلا هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. [الحديد: ١٦]. يقول: بلى يا ربّ، بلى يا ربّ.

وعن محمد بن كعب القرظي ـ رحمه الله تعالى ـ قال: «لأنْ أقرأ في ليلتي حتى أصبح بـ«إذا زُلزلت» و«القارعة» لا أزيد عليهما، وأتردَّد فيهما وأتفكَّر، أحب إليّ من أن أهذّ ليلتي هذًّا، أو قال: أنثره نثراً»[2].

رابعاً: أَلْزِمْ نفسك فهم كلام الله تعالى، وذلك بالتحقُّق من المعاني والمقاصد التي في ذهنك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾. [آل عمران: ٧]. أي أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضارّ فيتركونه. وأدنى الفهم: الغريزة والملكة

---

(١) «مسلم»: (رقم الحديث: ٧٧٢).

(٢) «كتاب الزهد» لابن المبارك: (ص/ ٩٧).

الفطرية التي في الإنسان، وأعلى الفهم: ما كان عن طريق الوحي، لخصوصية يهبها الله من يصطفي من عباده. وأضرب على هذا مثالين:

الأول: ما رواه مسروق ـ رحمه الله تعالى ـ قال: جاء إلى عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ رجل فقال: «تركتُ في المسجد رجلاً يفسِّر القرآن برأيه، يفسِّر هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾. قال: يأتي الناس يوم القيامة دخان فيأخذ بأنفاسهم، حتى يأخذهم منه كهيئة الزكام، فقال عبدالله: من علم عِلماً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم. فإنَّ من فقهِ الرجل أنْ يقول، لما لا عِلم له به: الله أعلم.

إنَّما كان هذا أنَّ قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابها قحط وجهد، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد. وحتى أكلوا العظام، فأتى النبي ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله، استغفر الله لمضر، فإنهم قد هلكوا. فقال: «**لمُضر؟ إنكَ لجريء**». قال: فدعا الله لهم. فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥﴾. [الدخان: ١٥]. قال فمُطروا فلما أصابتهم الرفاهية قال، عادوا إلى ما كانوا عليه. قال: فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾. [الدخان: ١٠،

١١]. ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾. [الدخان: ١٦].
قال: يعني يوم بدر[1].

الثاني: ما رواه أسلم أبي عمران قال: كنّا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر الجهني صاحب رسول الله ﷺ، وعلى أهل الشام فضالةُ بن عبيد صاحب رسول الله ﷺ. فخرج من المدينة صفٌّ عظيم من الروم، وصففنا صفًّا عظيماً من المسلمين، فحمل رجلٌ من المسلمين على صفّ الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا مقبلاً، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله! ألقى بيده إلى التهلكة. فقام أبو أيوب الأنصاري صاحبُ رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس: إنكم تتأولون هذه الآية على هذا التأويل، أن حمل رجلٌ يقاتل يلتمس الشهادة. وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار. إنا لما أعزَّ الله دينه، وكثر ناصريه، قلنا فيما بيننا بعضنا لبعض، سرًّا من رسول الله ﷺ. إنّ أموالنا قد ضاعت، فلو أنا أقمنا فيها، فأصلحنا ما ضاع منها. فأنزل الله في كتابه يردّ علينا ما هممنا

---

(١) «البخاري: (رقم الحديث: ٤٧٧٤ ـ وقد ترجم الحافظ لهذا الحديث في كتابه في عشرة مواضع متفرقة)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ٢٧٩٨). **قلت: والصحيح أن آية الدخان تقع مرتين: الأولى ما حدث لكفار قريش، والثانية ما سيقع في وقت لا يعلمه إلا الله. لحديث: «إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه». رواه ابن جرير بإسناد جيد.**

به، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾. [البقرة: ١٩٥]. بالإقامة التي أردنا أن نقيم في الأموال ونصلحها، فأمِرْنا بالغزو.

فما زال أبو أيوب الأنصاري غازياً في سبيل الله حتى قبضه الله[١].

قال مُقيِّده ـ عفا الله تعالى عنه ـ أوَّلُ يقظة القلب؛ تيقظ العقل واستجابته لوحي الله وهداه. وكل من أطاع الله واتَّبع شرعه وهداه؛ فذلك هو السعيد في دنياه وأخراه، وهو الحائز على الجوائز، والفائز بمغانم الدارين، نسأل الله من فضله العظيم.

والدليل على هذا قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾. [الأنفال: ٢٤].

ومعلوم أنَّ مبدأ الفِكر والنظر في الدماغ، ومبدأ الإرادة في القلب. فالقلب آلة التعقُّل والتدبُّر، ومحل الإرادة والاعتبار[٢]، وجماهير المفسرين يُقرِّرون أنَّ القلب هو محلّ العلم أيضاً، وقد سئل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بماذا نِلت العِلم؟ قال: بلسان سؤول، وقلب عقول[٣].

---

(١) «أبو داود»: (رقم الأثر: ٢٥١٢)، و«الترمذي»: (رقم الأثر: ٢٩٧٢) وإسناده صحيح.

(٢) «فتاوى ابن تيمية»: (٩/ ٣٠٣)، و«تفسير الطبري»: (١/ ٤٣٦).

(٣) «الإصابة»: (٤/ ١٢٥)، و«المدخل» للبيهقي: (رقم الأثر: ٤٢٧)، و«إعلام =

وجُلّ النصوص التي وردت في القرآن المجيد توبيخاً وتقريعاً لأقوام لم يتصفوا بالفقه، إنَّما خصَّ الله بها طائفتين: المشركين والمنافقين. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾. [الأعراف: ١٧٩].
وقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا...﴾. [الفتح: ١٥]. وغيرها من الآيات.

أما قول الله تعالى: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣)﴾. [الكهف: ٩٣].

فإنه خبر عن قومٍ لا يفهمون كلام من يخاطبهم إلا بشدة وبطء، والمقصود بهم قبيلتا «يأجوج ومأجوج». ومثله قول الحق سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. [الإسراء: ٤٤]. فإن معناه أنَّ الناس لا يفهمون تسبيح المخلوقات التي من غير جنسهم. والله أعلم.

خامساً: تبيَّن واستوثق لما درستَه وفهمتَه من معان ومقاصد بعرضها على كلام الله وكلام رسوله ﷺ، فقد قال الإمام عبدالرحمن بن مهدي ـ رحمه الله تعالى ـ: «لا يجوز أن يكون الرجلُ إماماً حتى يتعلَّم ما يصح مما لا يصحّ، وحتى لا يحتج بكل شيء، وحتى يعلم مخارج العلم»[1].

= الموقعين»: (٢/ ٣٤).

(١) «الجامع لأخلاق الراوي»: (٢/ ٩٠).

مثال ذلك: إذا قرأت قول الله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾. [المائدة: ١].

فإن الذي يردُ إلى الذِّهن من معناها: إباحة أكل لحوم الإبل والبقر والغنم إلا الميتة منها، لكنَّ هذا المعنى لا يكفي، وقد جاء وافياً في قول الحق سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾. [المائدة: ٣].

فهذه عشرٌ من المحرَّمات، منها الميتة وما يلحق بها، وهي المجملة في الآية الأولى.

ومثال آخر: إذا قرأت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾. [البقرة: ٢٢١].

فإنَّ الذي يردُ إلى الذهن من معناها: تحريم الله على المؤمنين أن يتزوَّجوا المشركات من عبدة الأوثان، ويدخل في عمومها ـ إنْ كان مراداً ـ كلُّ مشركة من كتابية ووثنية.

والصحيح أنَّ هذه الآية عامة، وقد خصّ الله أهل الكتاب بالإباحة. فالمرأة الكتابية يجوز للمسلم نِكاحها، بشرط أن تكون حرةً عفيفةً، وأنْ يعقد عليها العقد الشرعي وهو القائم

على الولي والشاهدين والمهر والصيغة. والدليل على هذا قول الحق سبحانه: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾. [المائدة: ٥][1].

ومثال ثالث: إذا قرأتَ قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾. [المائدة: ٢٥، ٢٦].

فإن الذي يردُ إلى الذِّهن من معنى كلمتي الفِسق في الآية الأولى والثانية: أنَّه الخروج عن الطاعة وعدم الالتزام بأحكام الشرع، مع الإقرار بالشهادتين، والاعتقاد بالوحدانية قولاً وعملاً.

والصحيح أنَّ الفِسق الوارد في الآيتين هنا، هو فسق الكفر الناقِل عن الملة، عياذاً بالله تعالى[2].

وقد قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «كلُّ شيء نسبهُ

---

(١) انظر تفصيلاً وافياً عن هذه المسألة في «فتاوى ابن تيمية»: (٣٢/١٧٨ ـ ١٨١) وفيه تأصيل بديع لا مَزِيْد عليه.

(٢) قال ابن الوزير: «قد ورد في السمع ما يدل على أن الفاسق في زمان النبي ﷺ يطلق على الكافر كثيراً، كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾. [التوبة: ٦٧]. فهي دالة على أن الفاسق في العرف الأول يطلق على الكافر، ويسبق إلى الفهم». «العواصم والقواصم»: (٢/١٦٠).

الله إلى غير أهل الإسلام من اسمٍ مثل خاسر، ومسرف، وظالم، وفاسق، فإنَّما يعني به الكُفر، وما نسبَهُ إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذّنب»[1]. ففي قول الحق سبحانه: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾. [البقرة: ١٩٧]. نسبَ الفسوق إلى أهل الإسلام، والمراد به هنا «محظورات الإحرام» كما اختاره الطبري وغيره، رحم الله الجميع[2].

أما آية المائدة المتقدِّمة، فالفسوق فيها منسوب إلى اليهود، كما تُفيدُهُ آيات القصة في النصّ القرآني.

ومن أجلِّ طُرُقِ التثبُّت من معاني ومقاصد القرآن الواردة إلى الذهن؛ أنْ يعمِدَ المسلمُ إلى تفسير القرآن بالقرآن. وقد نبَّه أبو العباس ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ إلى هذا المعنى حين قال: «إنَّ أحسنَ الطُّرق ـ في تفسير القرآن ـ أنْ يفسَّر القرآنُ بالقرآن، فما أُجمِل في مكانٍ فإنَّه قد فُسِّرَ في موضع آخر، وما اختُصِرَ من مكانٍ فقد بُسِط في موضع آخر، فإنْ أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحةٌ للقرآنّ وموضِّحةٌ له...»[3].

---

(١) «تفسير الطبري»: (١/ ١٤٢).

(٢) «تفسير الطبري»: (٢/ ١٥٢). وللاستزادة من هذا الباب انظر: «نزهة الأعين النواظر»: (ص/ ٤٦٥).

(٣) «فتاوى ابن تيمية»: (٧/ ١٩٥).

فمن أمثلة تفسير القرآن بالقرآن، أنْ تقرأ مثلاً قول الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾. [الجن: ١٦، ١٧].

فالماء الغَدَقَ المذكور في هذه الآية يراد به سعة الرزق كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾. [المائدة: ٦٦].

وكما في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾. [الأعراف: ٩٦].

والرزق المذكور أعدّه الله ابتلاءً واستدراجاً، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾. [الأنعام: ٤٤].
وكما قال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾. [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ومن أمثلة تفسير القرآن وبيانه بالسنة المطهرة؛ قول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾. [البقرة: ١٨٧].

فقد قال رسول الله ﷺ في بيان الخيطين الأبيض والأسود: «**إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل**»(١). وكان قد أشكل على بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ المراد من

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ١٩١٦)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ١٠٩٠).

الآية، حتى أخذ بعضهم يعْمِدُ إلى خيطين أو عِقالين، أحدهما أسود والآخر أبيض فيربطهما في رِجْليه، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما ويُميِّز الأسود من الأبيض، فإذا تبين له ذلك أمسك عن الكل، فبيَّن لهم رسول الله ﷺ معنى هذه الآية والمراد بها[1].

وإذا قرأت قول الله تعالى: ﴿ **وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ** ﴾. [المائدة: ٣٨]. فإنَّ مما بيَّنها قول الرسول ﷺ في تحديد قدر النصاب الذي تقطع به يد السارق، كما هو مذهب الجمهور في اشتراط النصاب، لحديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «**تُقطعُ اليدُ في ربع دينار فصاعداً**»[2]. ولحديث: «**اقطعوا في ربع دينار ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك**»[3]، وفي لفظ: «**لا تُقطَعُ يدُ السارق فيما دون ثمن المجنّ**»، قيل لعائشة: «ما ثمن المجنّ؟ قالت: ربع دينار»[4].

ولقد كان الرعيل الأول ـ في عهد الرسول ﷺ ـ يقتبسون من مشكاة النبوة ما يشكل عليهم من معان ومقاصد تجول في أذهانهم. فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله

(١) «تفسير القرآن العظيم»: (١/ ٢٢١).

(٢) «البخاري»: (رقم الحديث: ٦٧٨٩)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ١٦٨٤).

(٣) «مسند أحمد»: (٢/ ١٠٠). وإسناده صحيح.

(٤) «النسائي»: (رقم الحديث: ٤٥٨٣) وإسناده صحيح.

ﷺ: «**من نوقش الحساب عُذِّب**»! فقلتُ: أفليس الله قال: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾. [الانشقاق: ٨]؟ فقال: «**ذاك العَرْضَ، ولكن من نوقش الحساب عُذِّب**»[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾. [المؤمنون: ٦٠]. أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «**لا يا ابنةَ الصِّدِّيق، ولكنه الرجل: يصوم ويصلي ويتصدَّق، ويخاف أن لا يقبل منه**»[(٢)].

سادساً: إذا عرفت معاني الآيات ومقاصدها؛ فلا تتوانَ في التفتيش عن فوائدها وفرائدها، ولا تقصِّر في التنقير عن مسائلها وعيون مباحثها. ويشترط لذلك ألا تقول في القرآن برأيك، وألا تتجاوز ما أراده الله ورسوله ﷺ في دين الله تعالى. ولهذا قال الحق سبحانه: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾. [النساء: ٨٣]. قال ابن جرير الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ: لَعَلِمَ حقيقة ذلك الخبر الذي جاءهم، الذي يبحثون عنه ويستخرجون. وكل مستخرج شيئاً كان مُستتراً عن أبصار العيون أو عن معارف القلوب، فهو له مستنبط.

ومعنى: «**لعلمه الذين يستنبطونه**»:

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ٦٥٣٦)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ٢٨٧٦).
(٢) «الترمذي»: (رقم الحديث: ٣١٧٥). وإسناده صحيح.

قال السدي: هم الذين يُنقِّرون عن الأخبار.
وقال قتادة: الذين يفحصون عنه، ويهمُّهم ذلك.
وقال أبو العالية: الذين يتتبَّعونه ويتحسَّسونه[1].

واعلم أن الاستنباط من القرآن المجيد لا يكون صحيحاً إلا بشروط خمسة:

الأول: ألاَّ يُعارض نصوص الوحيين.

الثاني: أن يكون له أصلٌ في الكتاب أو السنة.

الثالث: أنْ يكون المعنى المراد مما تقتضيه الدلائل الشرعية أو اللغوية أو العرفيَّة.

الرابع: ألاَّ يكون الاستنباط مصنوعاً ومتكلَّفاً.

الخامس: أن يدلَّ على عِلمٍ وفقهٍ نافع[2].

وكل من رسخ علمه وقويت ملكته وصحّ نظره، فهو جدير بتأمُّل القرآن لاستلال فوائده وحِكمه وأسراره. «وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ، وهو الذي ينحو إليه المتأخرون، وتفسير على المعنى، وهو الذي يذكره

---

(١) «تفسير الطبري»: (٢/ ٩٨).

(٢) انظر للاستزادة: «الإكليل في استنباط التنزيل»: (ص/ ١٠ ـ وما بعدها)، و«الموافقات»: (٣/ ٢٦٨ ـ وما بعدها)، و«مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط» للطيار: (ص/ ١٥٩ ـ وما بعدها)، و«مناهل العرفان»: (٢/ ٨٦ ـ وما بعدها)، و«اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر» للرومي: (١/ ٤٠٧ ـ وما بعدها)، و«دراسات في القرآن» لأحمد خليل: (ص/ ١٢٧).

السلف. وتفسير على الإشارة والقياس، وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم. وهذا لا بأس به بأربعة شروط: ألا يُناقض معنى الآية، وأن يكون معنى صحيحاً في نفسه، وأن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم. فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطاً حسناً»[1].

ومن دقائق الاستنباط وفرائده ما أخرجه ابن أبي حاتم عن معمر بن عبدالله الجهني، قال: تزوَّجَ رجلٌ مِنَّا امرأةً، فولدتْ لتمام ستة أشهر، فانطلق إلى عثمان، فأمر برجمها، فقال علي: أَما سمعت الله يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾. [الأحقاف: ١٥]. وقال: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾. [لقمان: ١٤]. فكم تجدُ بقي إلا ستة أشهر. فقال عثمان: والله ما تفطَّنتُ لهذا»[2].

والفطنة في باب التدبر والاستنباط من أهم الركائز المعينة على استلال المعاني والمقاصد من الألفاظ والمباني. فهي قوةٌ للنفي تشمل الحواس الظاهرة والباطنة، مُعدَّة لاكتساب العلوم. ومن أعظم مقوياتها: الربط بين المعارف المختلفة ببصيرة وقَّادة وذهن حاضر صحيح، وتأمّل المعاني وتحليلها

(١) «التبيان في أقسام القرآن»: (ص/ ٥١).

(٢) «الإكليل» للسيوطي: (ص/ ١٩٤).

بفقه شرعي رجيح، وفوق ذلك كله: الإيمان بالله إيمان صادقاً كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾. [العنكبوت: ٤٣].

ومن لطائف الاستنباط ودقائقه ما يُعزى إلى الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ من أنَّه استنبط من قول الله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾. [المسد: ٤]. دليلاً على صحة أنكحة الكفار[(١)].

وقد استنبط الإمام الشافعي من قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾. [الأعراف: ٢٧]: دليلاً على إبطال شهادة من زعم أنَّه رأى الجن، إلا أن يكون الزاعم نبيًّا[(٢)].

واستنبط ـ رحمه الله تعالى ـ دليل حجية الإجماع من قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾. [النساء: ١١٥]. وله في هذا الاستنباط قصة عجيبة

---

(١) «الإكليل»: (ص/ ٢٣٠).

(٢) «مناقب الشافعي» للبيهقي: (ص/ ١٦٧)، و«فتح الباري»: (٦/ ٣٤٤)، و«الجامع لأحكام القرآن»: (٣/ ٩٤). قلت: واستنباط الإمام الشافعي ليس على إطلاقه، وقد نبَّه على هذا ابن تيمية في «الجواب الصحيح»: (٤/ ٢٨٩)، و«فتاوى ابن تيمية»: (١٥/ ٧)، و«الإيقاظ» للسخاوي: (ص/ ٣١).

ليس هذا موضع بسطها، فلتُراجع[1].

ومن الاستنباطات الحسنة ما استدل به الجمهور على حجية القياس من قوله سبحانه: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾. [الحشر: ٢][2].

ومن اللطائف أيضاً ما قرَّره العلاَّمة محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه «أضواء البيان». فقد استنبط من قول الله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾. [الفاتحة: ٦، ٧]. دليلاً على صحة إمامة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: من المنعَم عليهم: الصدِّيقون، وقد بيَّن الرسول ﷺ أنَّ أبا بكر رضي الله عنه من الصدِّيقين، فاتضح أنه داخل في الذين أنعم الله عليهم، الذين أمرنا الله أن نسأله الهداية إلى صراطهم، فلم يبق لَبْسٌ في أنَّ أبا بكر الصديق على الصراط المستقيم، وأنَّ إمامته حق[3].

(١) «أحكام القرآن» للبيهقي: (١/ ٣٩)، و«تفسير الرازي»: (١١/ ٤٣)، و«مناقب الشافعي»: لابن كثير: (ص/ ١٧٠).

(٢) «المستصفى»: (٢/ ٢٣٤)، و«إرشاد الفحول»: (ص/ ١٩٩).

(٣) «أضواء البيان»: (١/ ٣٦). ومن الاستنباطات القوية ما استدل به الإمام مالك أن من سبّ الصحابة فلا حظَّ له في الفيء؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ [الحشر: ١٠]. ومن الاستنباطات المليحة ما أورده بعضهم عند قول الله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ [المنافقون: ١١]. حيث قال: إن هذه الآية من سورة هي رأس ثلاث وستين =

= من سور القرآن الكريم، والسورة التي بعدها هي سورة «التغابن» أي أن رسول الله ﷺ سيعيش ثلاثاً وستين عاماً، وبعد ذلك يظهر التغابن في فقده. واستنبط بعضهم عمر عيسى عليه الصلاة والسلام من قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم: ٣٣]. وإذا عدَّ عادٌّ كلمات الآيتين التي قبل هذه الآية؛ فإن مجموع الكل ثلاث وثلاثون، وهو عمر عيسى عليه السلام. ومعلوم أن هذا لا يخلو من تكلُّف، والله أعلم.

وقد استنبط بعض العلماء من قول الله تعالى: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ٤]. أن فتح بيت المقدس ـ في عهد صلاح الدين الأيوبي ـ سيكون في عام (٥٨٣هـ)، وتحقق ذلك في وقته بفضل الله ونصره. والفتح المذكور بشَّر به «ابن برَّجان» أحد علماء وقته، استخرجه عن طريق حساب الجمل من الآية المتقدمة.

ومن الاستنباطات الغريبة ما أورده بعضهم عند قول الله تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾ [القدر: ٣]، فقالوا: ألف شهر هي مدة الدولة الأموية، لأنها مكثت ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر، وأن ذلك من الله تسلية لرسول الله ﷺ حيث أطلعه على ملوك بني أمية واحداً واحداً فسُرِّي عنه بهذه السورة!!

ومن استنباطات جهال الصوفية؛ قولهم بجواز الرقص، ودليلهم في هذا قول الله تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ [ص: ٤٢]. نعوذ بالله من علم لا ينفع! انظر: «الموافقات»: (٤/ ١٩٤، ٢٥٤)، و«الإكليل في استنباط التنزيل»: (ص/ ١٠ ـ وما بعدها)، و«وفيات الأعيان»: (٤/ ٢٣٠)، و«سير أعلام النبلاء»: (٢١/ ٣٦٠)، و«البرهان في علوم القرآن»: (٢/ ١٨١ ـ وما بعدها)، و«فتح الباري»: (٢/ ٢١١٦ ـ ط بيت الأفكار الدولية، وفيه أن بعض الرافضة قال إن قول الله تعالى: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [التوبة: ٤٠] ليس الثاني أبو بكر الصديق لأن عائشة كانت تقول: «ما أنزل فينا شيئاً من القرآن

سابعاً: اتعظ وانتفع بما في القرآن المجيد من دروس العلم ومواعظ الحديث. والاعتبار في التنزيل على قسمين:

الأول: الاعتبار بالمشاهدات.

الثاني: الاعتبار بالمرويَّات[1].

= إلا أنَّ الله أنزل عذري»!!. وقد ردّ عليه الحافظ ابن حجر بما يكفي ويشفي.
وانظر أيضاً: «أحكام القرآن» لابن العربي: (٣/ ١١٥١ ـ وما بعدها).

(١) من الأساليب التربوية التي يغفل عنها كثير من الناس؛ التعليم بالقصص القرآني. ومعلوم أن الناس ـ في الغالب ـ يميلون إلى القصص لاشتمالها على التشويق وسرد الأحداث. وفي القرآن المجيد أكثر من مئة قصة، يمكن لأهل التربية والتعليم أن يفيدوا منها. وأهم مقاصد القصص القرآني غرس الإيمان في أفئدة الناس، وربطهم بربهم ودينهم قولاً واعتقاداً وعملاً. وتجد هذه المعاني وافرة في قصة يوسف عليه السلام مع صاحبي السجن، عندما قال للسائلين: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ﴾ [يوسف: ٣٨ ـ ٤٠]. فهو داعية في السجن. يدعو إلى توحيد العبادة وإخلاص العمل له سبحانه.
ويستطيع المعلم في مدرسته، والأب في بيته، والقائد مع جنده، وغيرهم، أن يوظفوا القصص القرآني لتقوية اليقين وتثبيت الإيمان في نفوس الناس إذا أحسنوا عرض القصة القرآنية وفوائدها وهداياتها. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم متعلقين بآداب القصص القرآني. ففي صحيح البخاري أن عائشة رضي الله عنها دخلت عليها امرأة ـ في وقت حادثة الإفك ـ وقصت عليها ما يقول الناس، فخرت مغشيًّا عليها، فلما أفاقت ـ وقد أخذتها الحمَّى ـ دخل عليها رسول الله ﷺ، فقالت: والله لئن حلفت لا تصدقوني، ولئن اعتذرت لا تعذروني، فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه، فالله المستعان على ما تصفون». [رقم الحديث: ٣٣٨٨]. وانظر إلى الناس في المسجد قبل صلاة الجمعة وهم يقرؤون قصة أصحاب الكهف، وقصة الجنتين، وقصة موسى مع=

والفرق بينهما أنَّ الأول مختصّ بما يقع البصر عليه غالباً كآيات الله في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وما أقلّ من يعتبر بخلْقها وحكم الله في صنعها، يقول الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾. [غافر: ٥٧]. ويقول سبحانه: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. [يونس: ١٠١]. ويقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ﴾. [النور: ٤٣، ٤٤].

وعن العباس ـ رضي الله عنه ـ قال: كنَّا عند النبي ﷺ فمرَّت سحابةٌ فقال: **«ما هذا؟»** قلنا: السحاب، قال: **«والمُزْن»** قلنا: والمزن، قال: **«والعَنان»** قلنا: والعَنان، قال: **«أتدرون كم بين السماء والأرض؟»** قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: **«أحدٌ أو اثنين أو ثلاث وسبعين سنة، ثم عدّ سبع سنوات كذلك، ثم فوق ذلك بحرٌ بين أعلاه وأسفله كما بين سماء إلى سماء، والعرش فوق ذلك، والله فوق العرش»**[1].

= الخضر عليهما السلام، وقصة ذي القرنين الحميري التُّبَّعي، كلها في سورة الكهف في عشر ومئة آية. فلو تفطَّن الخطباء والأئمة إلى توعية المسلمين بمقاصد هذه القصص القرآنية، ثم قام المختصون بترجمة معاني تلك القصص إلى اللغات الحية في العالم، لكان في ذلك خير عظيم وثواب جزيل.

(١) «أبو داود»: (رقم الحديث: ٤٧٢٤)، و«الترمذي»: (رقم الحديث: ٣٣٢٠) وإسناده ضعيف، لكن حسَّن إسناده ابن تيمية في «الفتاوى»: (٣/ ١٩٢)، =

وقد حثَّ الله تعالى على النظر وأخذ العبرة من الأنعام والدواب، فقد قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾. [المؤمنون: ٢١][1].

وكما قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾. [الغاشية: ١٧].[2].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾. [النور: ٤٥].

ومن أعظم ما يدعو إلى العبرة والتفكُّر: خلق الإنسان

= وابن القيم في «مختصر الصواعق»: (٢/ ٢٠٧). ويُنْعَت هذا الحديث بحديث «الأوعال».

(١) في سورة «النحل» وردت هذه الآية بهذا النص: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ [النحل: ٦٦]. فآية النحل ذكر الله فيها الأنعام، وآية المؤمنون أنَّث الله فيها الأنعام. وعلة ذلك أن أسماء الأجناس يجوز فيها التذكير نظراً إلى اللفظ، والتأنيث نظراً إلى معنى الجماعة الداخلة تحت اسم الجنس.

(٢) **(لطيفة): الله تعالى لم يضرب المثل بالفيل، مع أنه في الظاهر أعظم خلقة من الجمل! والعلة في هذا والله تعالى أعلم؛ أن العرب في مكة خاصة؛ لا عهد لهم بالفيل في وقت نزول القرآن وبعده، فكيف يحثُّهم على النظر والتفكر في أمرٍ لا يعرفوه ولم يشاهدوه. أما رؤية عبدالمطلب وجماعته للفيل في مكة، فإنها كانت رؤية محدودة لم يتأملوا فيها ذلك المخلوق لانشغالهم بأمر أبرهة. وانظر قصة طريفة عن الفيل والجمل في كتاب «الحيوان»: (٧/ ٢١٣ ـ ٢١٤).**

وما فيه من بديع صنع الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾. [الذاريات: ٢١]. وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾. [الروم: ٨].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك. . .**»[1].

لقد أثبت الطب اليوم أنَّ في جسم الإنسان حوالي ستة «لترات» من الدم، تجري في شبكة توزيع مؤلفة من الشرايين والأوردة والأوعية الشعرية، هي من الامتداد والتشعُّب بحيث توصل الدم وما يرشح منه من مكونات إلى كل خلية من خلايا الجسم الإنساني، وعددها ما يقرب من مئة ألف مليار خلية. ولقد قدَّر الأطباء أنَّ هذه الشبكة التي يجري فيها الدم يبلغ طولها ـ تقريباً ـ إذا وضعت في خط مستقيم ـ ما يقرب من مئة ألف ميل! ودم الإنسان يحتوي تقريباً على خمسة وعشرين بليون كرة حمراء يهلك منها في كل ثانية مليونان ونصف من الكريات، يُجدِّدها تلقائيًّا مخ العِظام، كما أنه يحتوي على ثلاثين مليون خلية بيضاء، هي جنود الجسم وعدتهُ في المناعة والدِّفاع بإذن الله تعالى، وهناك أيضاً ما يقرب من مليار صفيحة لها الدور الرئيسي في تخثُّر الدم[2].

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ٣٢٠٨)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ٢٦٤٣).

(٢) «من علم النفس القرآني»: (ص/ ٤٦).

والحديث في هذا يطول، وسبحان الله القائل: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ﴾. [السجدة: ٧].

ثم انظر واعتبر بما تشاهده من بقايا ديار الذين قصَّ الله علينا أخبارهم، من مُكذِّبي الرسل، المعاندين لدين الله الحنيف. قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٣٨ ﴾. [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]. وهذا خِطابٌ لأهل مكة الذين أشركوا ـ قديماً ـ فقد كانوا يسافرون للتجارة إلى الشام وفلسطين ويمرّون بالبحر الميت، وهو مكان الهالكين من قوم لوط ـ عليه السلام ـ إذ أصبح بعد الخسف بحراً ميّتاً لا حياة فيه البتة[(١)].

وقد قال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ ﴾. [الحجر: ٧٥، ٧٦].

ففي تلك الديار التي دمَّرها الجبّارُ سبحانه وتعالى آياتٌ وعظاتٌ يُبْصِرُها كل مؤمن عاقل.

وما أحسن ما قال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله تعالى ـ: «إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عليّ فيه نعمة ولي فيه عِبرة»[(٢)].

أما الاعتبار بالمرويّات: فالمقصود به ضرورة الانتفاع

---

(١) «أيسر التفاسير»: (ص ١٠٩٣ ـ الطبعة الجديدة).

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: (١/ ٤٣٩ ـ ط دار المعرفة).

بكل خبر في القرآن المجيد، من الأخبار الشرعية والغيبية وكل ما لم ندركه ونحضر وقائعه. ومن أمثلة ذلك ما أخبرنا الله به في كتابه عن حال الأمم البائدة التي انحرفت عن توحيد الله تعالى وطغت وتكبَّرتْ على منهج الله وشرعه، كعاد وثمود، وأصحاب الأيكة، وأصحاب القرية، وأصحاب الرس، وقوم تبَّع وقروناً بين ذلك كثيراً ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾. [الفرقان: ٣٩].

فحريّ بكل مسلم أن يتلمَّس مواضع العِبَر، ومواقع التبصُّر في الكتاب الحكيم، وأن يتأمَّل في جهاد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وما كابدوه من مشاق ومصاعب لا يقدر قدرها إلا اللطيف الخبير.

فنوح عليه الصلاة والسلام لبث في قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى توحيد الله تعالى ونبذ الشرك وأهله. لكن أهل الحلِّ والعقد من قومه سخروا منه، وزعموا أنه لا يتبعه إلا أهل المهن المحتقرة وسفلة الناس، فأهلك الله الظالمين من قومه بالغَرَق، ونجى الله نوحاً والمؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ

مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾. [القمر: ٩ ـ ١٥][1]. أما هود عليه الصلاة والسلام فقد أرسله الله إلى قومه «عاد»، ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ﴾[2]. [الفجر: ٧]. وكانوا بـ«الأحقاف» ـ بين حضرموت وعُمان ـ فكذَّبوه، وزعموا أنَّ به سفاهة وخفَّة عقل، وتحدَّوه أن يأتي الله بما حذَّرهم منه وأنذرهم، فسلَّط الله عليهم الريح الدبور العقيم ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾. [الذاريات: ٤٢]. ونجى الله هوداً والمؤمنين برحمة منه تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾. [هود: ٥٩، ٦٠]. وأرسل الله رسوله صالحاً عليه الصلاة والسلام إلى «ثمود» وهم قومه، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، وعاصمتهم الحِجْر بالقرب من العُلا[3]،

---

(١) نشأ نوح عليه الصلاة والسلام في أرض العراق، وبعد الطوفان استوت سفينته على «الجوديّ» في شرقي تركيا (جبال أرارات)، عند جزيرة ابن عمر، عند ملتقى الحدود السورية التركية.

(٢) إرم في الآية عطف بيان لعاد، فإرم هي عاد، وصفت بالقوة والبطش، وطول الأجسام، وهذا القول هو الذي رجَّحهُ الإمام الطبري رحمه الله تعالى.

(٣) العلا: مدينة تقع جنوب «تبوك» وتبعد عن «حِجر» قوم صالح حوالي (٣٠كم). و«الحجر» اسم لقرية جبلية عظيمة تقع بين وادي القرى والمدينة النبوية والشام. و«الحجر» كانت ديار ثمود، وجبالها منحوتة في جوفها وبأسفلها وسفوحها، انظر تحقيقاً مفصلاً عن «الحجر» في كتاب «مدائن صالح» لمرداد. ويُعدّ هذا الكتاب من أفضل ما كتب حول هذا الموضوع.

وكانوا يبنون القصور في السهول ليسكنوها في الصيف، وينحتون الجبال بيوتاً ليسكنوها في الشتاء. ولما دعاهم رسولهم إلى توحيد الله وطاعته، طالبوه ـ في تعنُّت ـ بأن يأتيهم ببيِّنة، فأخرج الله ناقة عشراء من جبل عندهم أشاروا إليه، وبعد ذلك تمادوا في غيهم ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ﴾. [الشمس: ١٣ ـ ١٥]. فقال رسولهم: ﴿ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾. [هود: ٦٥ ـ ٦٨]. فسلط الله على القوم الظالمين صيحة من السماء، ورجفة من الأرض، فخرَّوا على الأرض جاثمين جثوم الطير على الأرض، إذا ألصقت بطونها بها وسكنت لا تتحرك. ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾. [الأعراف: ٧٩].

ثم تأمل حال لوط عليه الصلاة والسلام مع قومه أهل «سدوم» عندما دعاهم إلى توحيد الله تعالى، وهجر الشر والفساد في الأرض، وأعظم ذلك إتيان الرجال في أدبارهم، مخالفين فطرة الله وسنته في خلقه، كما وصف الحق

سبحانه: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾. [هود: ٧٨، ٧٩]. ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾. [الأعراف: ٨٢، ٨٤]، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾﴾. [هود: ٨٢، ٨٣].

ثم تأمل قصة شعيب عليه الصلاة والسلام مع قومه «مدين»[1]، فقد دعاهم إلى توحيد الله تعالى، وحذَّرهم من نقص الكيل والوزن وبخس الناس حقوقهم، ونهاهم عن السعي بالفساد في الأرض، لكن ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾﴾. [هود: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ

---

(١) منطقة شمال غرب الحجاز بالقرب من خليج العقبة، وكانت بالقرب منهم شجرة كبيرة ضخمة حولها غيضة ملتفة بها عرفت باسم «شجرة الأيكة». ويميل بعض الباحثين إلى القول بأنَّ «مدين» هي مدينة تبوك بين جبلي «حِسمَى» و«شرورَى»!

مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾. [الشعراء: ١٨٥ ـ ١٨٩].

وتأمَّل قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون ملك مصر، الذي استعبد هو والأقباط بني إسرائيل، ثم تمرُّد فرعون الذي كان يشدّ المستضعفين المقهورين في أربعة أوتاد في أيديهم وأرجلهم، كما قال الله تعالى: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾. [الفجر: ١٠]. وكما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾. [القصص: ٤]. فادعى الربوبية وظلم بني إسرائيل ظلماً عظيماً، وفرَّق بين الجماعات، وأهلك الذكور ساعة ولادتهم، وأبقى الإناث ليكبرن للخدمة والرق. وفي آخر ظلمه قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾. [القصص: ٣٨].

وبعد ذلك العلوّ والظلم والجبروت أهلك الله فرعون مصر في شمال خليج السويس كما قال سبحانه: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ

﴿٧٩﴾. [طه: ٧٨ ـ ٧٩][1]. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة**»[2].

وفي حياة الدعاة إلى الله تعالى والصالحين من الأمم كلها وقفات مليئة بالعِظات العظام والعبر الجسام لمن تفطَّن وتدبَّر[3]. ولقد روى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: أن

---

(١) ومن أجل أن يُبيِّن الله لخلقه أنَّ فرعون عبدٌ مربوب وليس بإله كما زعم، فقد أمر الله البحر بقذفه إلى اليابسة ليراه القاصي والداني، كما قال سبحانه: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس: ٩٢].

(٢) «الترمذي»: (رقم الحديث: ٣١٠٧)، و«مسند أحمد»: (٤/٥٣). وحال البحر: طينه. والحديث صحيح الإسناد بشواهده.

(٣) اقرأ مثلاً سيرة «لقمان» عليه السلام ـ وهو عبد من عبيد الله ولم يكن نبيًّا، وقد آتاه الله الحكمة وهي الفقه في الدِّين والإصابة في الأمور، ورأسها مخافة الله بذكره وشكره، الذي هو طاعته في عبادته وتوحيده فيها. وهذا الرجل الصالح كان حريصاً على تهذيب نفسه وأهله ظاهراً وباطناً، والدليل على ذلك أنَّ الله حكى عنه عِظته لابنه بعدم الشرك بالله، لأن الشرك ظلم وفساد وخسران على صاحبه. ونصائح لقمان مسطورة في كتاب الله في سورة باسمه، فعد إليها (آية ١٢ ـ وما بعدها). ولقمان كان رجلاً نوبيًّا من أهل «أيلة»، وكان حكيماً، وقد أدركه داود عليه الصلاة والسلام. ثم تأمل سيرة الرجل الصالح «ذو القرنين» الذي كان ملكاً حازماً وعادلاً، وكان يُعْرف بـ«الإسكندر» باني الإسكندرية المصرية. وأصله من حمير، وهو أحد ملوك التبابعة. وهذا الرجل يسَّر الله له أسباب الغلبة والنصر بتوحيده لله تعالى، وبإعداد العدة للظفر على أعدائه المشركين. فيمكن لأولياء الله أن يفيدوا من =

النبي ﷺ قال: «إن بني إسرائيل استخلفوا خليفةً عليهم بعد موسى ﷺ فقام يصلي ليلة فوق بيت المقدس في القمر، فذكر أموراً كان صنعها، فتدلى بسبب، فأصبح السبب معلقاً في المسجد، وقد ذهب.

قال: فانطلق حتى أتى قوماً على شط البحر، فوجدهم يضربون لَبْناً، أو يصنعون لبناً، فسألهم: كيف تأخذون على هذا اللبن؟ قال: فأخبروه، فلبَّنَ معهم، فكان يأكل من عمل يده، فإذا كان حين الصلاة قام يصلي، فرفع ذلك العمالُ إلى دهقانهم؛ أنَّ فينا رجلاً يفعل كذا وكذا، فأرسل إليه فأبى أن يأتيه، ثلاث مراتٍ، ثم إنه جاء يسير على دابته.

فلما رآه فر، فاتَّبعه فسبقه، فقال: انظرني أكلمك، قال: فقام حتى كلمهُ، فأخبره خبره، فلما أخبره أنه كان ملكاً، وأنه فرَّ من رهبة ربه، قال إني لأظنني لاحق بك، قال: فاتبعهُ، فعبدا الله، حتى ماتا برميلة مصر، قال عبدالله لو أني كنت ثمَّ لاهتديتُ إلى قبرهما بصفة رسول الله ﷺ التي وصفَ لنا»[1].

= سيرة هذا الرجل ليكتب الله لهم النصر والتمكين. وقد فصَّل الله خبره في سورة الكهف (آية ٨٣ ـ وما بعدها). وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أدري ذا القرنين أنبيًا كان أم لا». [سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٥/ ٢٥١].

(١) «مسند أحمد»: (١/ ٤٥١)، و«مسند البزار» (٤/ ٢٦٧) وإسناده صحيح. وانظر شرحاً وافياً للحديث في «صحيح القصص النبوي»: (٢٩٥ ـ وما بعدها).

قال مُقيِّده ـ عفا الله تعالى عنه ـ: لو أنَّ المسلم نَظَر في كتاب الله تعالى، وفي سنة نبيه ﷺ معتبراً ومتفكِّراً لازداد إيمانه، ورسخ علمه ويقينه. ولقد قال أحمد بن سعيد الدارمي: «سمعتُ من عليّ بن المديني كلمة أعجبتني، قرأ علينا حديث الغار، ثم قال: إنَّما نُقِل إلينا هذه الأحاديث لنستعملها لا لنتعجَّب منها»[1].

وبعد هذه اللَّمحة المقتضبة عن مسالك التدبُّر العملية؛ أُقيِّد لك هُنا أهم الأسس والدعائم التي يقوم عليها التدبُّر بقواعد ثابتة متينة:

الحرف	اللفظ	المعنى	سبب النزول	الأحكام
١	٢	٣	٤	٥

إنَّ مهمة التدبُّر لا يمكن أن تقوم قياماً متكاملاً بدون هذه الأسس الخمسة، فقاعدة التدبُّر هي الألفاظ والمعاني. ولا يخفى على كل مسلم أنَّ القرآن الكريم ـ عند السلف الصالح ـ كلام الله، وأنَّه حروف وكلمات، ولا يكاد يُنازِعُ في هذا إلا الأشاعرة والماتريدية ومن نحا نحوهم من المبتدعة.

---

(١) «شعب الإيمان» للبيهقي: (٧/ ٤٥٤).

أما كيفية الإفادة من تلك الدعائم، فيمكن إجمالها في النقاط الآتية:

أولاً: اعرف معنى الحروف التي يكثر ورودها في الكتاب العزيز، كحروف العطف، وحروف الجر، وحروف القسم، وحروف الاستفهام، والحروف المصدرية. أما الحروف المقطعة التي تَرِدُ في أوائل السور فإن «الأسلم فيها: السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن الله تعالى لم يُنْزِلها عبثاً، بل لحكمةٍ لا نَعْلَمُها»(١).

وقد جاءت هذه الحروف في أوائل السور على خمس حالات:

الأولى: على حرف واحد، مثل: ص، ق، ن.

---

(١) «تفسير ابن سعدي»: (ص/ ٢٣ ـ ط الرسالة). قلت: وقد زعم من لا علم له ولا فقه من المتقدِّمين والمتأخرين، أنَّ الحروف المقطعة يمكن من خلالها معرفة الحوادث والفتن والملاحم ونكبات الأمم. وقد أشار الإمام الشاطبي إلى هذا المسلك في فهم كلام الباري وعقَّب عليه بأنَّه من تُرَّهات اليهود. انظر: «الموافقات»: (٤/ ٢٣٨ ـ وما بعدها). وقد نقض ذلك المسلك ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم»: (ص/ ٨٢ ـ ط ابن حزم)، فقال: «وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره». وللفخر الرازي في «التفسير الكبير»: (١/ ٢٤٩ ـ ٢٥٨) بحث واسع ودقيق عن الحروف المقطعة، لكنَّه ليس على منهج أهل السنة والجماعة، فكن منه على حذر!.

الثانية: على حرفين: مثل: طه، يس، حم.

الثالثة: على ثلاثة أحرف، مثل: ألم، ألر، طسم.

الرابعة: على أربعة أحرف، مثل: المص، المر.

الخامسة: على خمسة أحرف، مثل: كهيعص، حم عسق[1].

والحرف ـ عند علماء لسان العرب ـ: ما دلّ على معنى في غيره ولم يقترن بزمان[2].

---

(١) السور المفتتحة بالحروف المقطعة تسع وعشرون سورة، أولها: البقرة وآخرها القلم.

(٢) «حاشية الآجرومية» لابن قاسم: (ص/ ٩). ولابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ قاعدة جليلة في الفرق بين معنى «الحرف» في اللغة ومعناه في الاصطلاح النحوي، أسوقه بتمامه لنفاسته ولجودة تحقيقه: «قول النبي ﷺ: «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات: أما إني لا أقول «الم» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» قال الترمذي: حديث صحيح، فهنا لم يرد النبي بالحرف نفس المداد وشكل المداد، وإنما أراد الحرف المنطوق وفي مراده بالحرف قولان:

١ ـ قيل: هذا اللفظ المفرد.

٢ ـ وقيل: أراد بالحرف الاسم كما قال: «ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

ولفظ «الحرف» يراد به: الاسم، والفعل، وحروف المعاني، واسم حروف الهجاء، ولهذا سأل الخليل أصحابه: كيف تنطقون بالزاي من زيد؟! فقالوا: زاي، فقال: نطقتم بالاسم وإنما الحرف «زه»، فبين الخليل أن هذه التي تسمى «حروف الهجاء» هي أسماء، وكثيراً ما يوجد في كلام المتقدمين «هذا =

= حرف من الغريب» يعبرون بذلك عن الاسم التام فقوله: «فله بكل حرف» مثّله بقوله: «ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»، وعلى نهج ذلك: وذلك حرف، والكتاب حرف، ونحو ذلك، وقد قيل: إن ذلك أحرف، والكتاب أحرف وروى ذلك مفسراً في بعض الطرق. . . ولفظ «الحرف» يراد به «حروف المعاني» التي هي قسيمة الأسماء والأفعال مثل: حروف الجر والجزم، وحرفي التنفيس، والحروف المشبهة للأفعال مثل: إن وأخواتها، وهذه الحروف لها أقسام معروفة في كتب العربية.

كما يقسمونها بحسب الإعراب إلى:

١ ـ ما يختص بالأسماء.

٢ ـ ما يختص بالأفعال.

ويقولون: ما اختص بأحد النوعين ولم يكن كالجزء منه كان عاملاً كما تعمل «حروف الجر» و«إن وأخواتها» في الأسماء، وكما تعمل «النواصب» و«الجوازم» في الأفعال، بخلاف «حرف التعريف» و«حرفي التنفيس» كالسين وسوف فإنهما لا يعملان لأنهما كالجزء من الكلمة، ويقولون: كان القياس في «ما» أنها لا تعمل، لأنها تدخل على الجمل الاسمية والفعلية، ولكن أهل الحجاز أعملوها لمشابهتها لليس وبلغتهم جاء القرآن في قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]، ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢].

ويقسمون الحروف باعتبار معانيها إلى:

١ ـ حروف استفهام.

٢ ـ وحروف نفي.

٣ ـ وحروف تحضيض، وغير ذلك.

ويقسمونها باعتبار بنيتها كما تقسم الأفعال والأسماء إلى: مفرد، وثنائي، وثلاثي، ورباعي، وخماسي.

فاسم «الحرف» هنا منقول عن اللغة إلى عرف النحاة بالتخصيص؛ وإلا فلفظ

وهو **قسمان**: حروف المعاني، وحروف المباني.

فحروف المعاني: هي التي تُفيد معنى جديداً تجلبه معها، مثل: مِن، إلى، على، نعم، لا. وهي ثلاثة أقسام:

(أ) ما يدخل على الأسماء والأفعال. وهذا لا يعمل شيئاً كـ«هل». قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾. [الأنبياء:

= «الحرف» في اللغة يتناول الأسماء والحروف والأفعال، و«حروف الهجاء» تسمى «حروفاً» وهي «أسماء» كالحروف المذكورة في أوائل السور، لأن مسماها هو «الحرف» الذي هو حرف الكلمة. وتقسم تقسيماً آخر إلى:

١ ـ حروف حلقية.

٢ ـ وشفهية.

والمذكورة في أوائل السور في القرآن هي نصف الحروف، واشتملت من كل صنف على أشراف نصفية: على نصف الحلقية، والشفهية والمطبقة، والمصمتة، وغير ذلك من أجناس الحروف، فإن لفظ «الحرف» أصله في اللغة: هو الحد والطرف، كما يقال «حروف الرغيف» و«حرف الجبل»، قال الجوهري: «حرف كل شيء طرفه وشفيره وحده ومنه حرف الجبل وهو أعلاه المحدد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١]، إلى قوله «والآخرة»، فإن طرف الشيء إذا كان الإنسان عليه لم يكن مستقرًّا؛ فلهذا كان من عبدالله على السراء دون الضراء عابداً له على حرف تارة يظهره وتارة ينقلب على وجهه كالواقف على حرف الجبل فسميت حروف الكلام حروفاً؛ لأنها طرف الكلام، وحده ومنتهاه إذا كان مبدأ الكلام من نفس المتكلم ومنتهاه حده وحرفه القائم بشفتيه ولسانه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ [البلد: ٨، ٩]، فلفظ الحرف يراد به هذا وهذا». «فتاوى ابن تيمية»: (١٠٣/١٢)، و«اختيارات ابن تيمية في النحو والصرف» (ص/ ٧١ ـ وما بعدها).

٨٠]. وقال سبحانه: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ ﴾. [ص: ٢١].

ففي الآية الأولى دخل الحرف على الاسم، وفي الآية الثانية دخل الحرف على الفعل.

(ب) ما يختصّ بالأسماء فيعمل فيها كـ«في». قال الله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾. [الذاريات: ٢٢].

(جـ) ما يختص بالأفعال فيعمل فيها كـ«لم». قال الله تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ ﴾. [الصمد: ٣].

أما حروف المباني: فهي حروف الهجاء العربية، التي يتألَّفُ منها الكلم(١).

ومعرفة الحروف ومعانيها من آكد ما ينصَحُ به المسلم، ليقف على معاني كلام الله على الوجه الذي أراده الله لعباده. وأضرب على هذا عدة أمثلة:

الأول: قول الله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾. [الشورى: ١١].

فقد اختلف المفسِّرون في معنى «الكاف» في الآية، لأن معنى الآية يستقيم بدونها. فقال بعضهم: إنَّ كلمة «مثل» مُقْحمة أُدخلتْ للتوكيد؛ لأن «الكاف» و«مثل» بمعنى واحد. وقال بعضهم: إنَّ «الكاف» هي المقْحَمة، جيء بها لتوكيد التشبيه المنفي. والصحيح أنَّ الكاف في الآية صِلةٌ جيء بها

---

(١) «المقتضب» للمبرد: (٢/ ٢٣٠ ـ وما بعدها)، و«معجم القواعد العربية» للدقر: (ص/ ٢٤١ ـ وما بعدها).

للتوكيد. وهذه الآية قاعدة عند أهل السنة والجماعة في إثبات أسماء الله وصفاته من غير تحريف ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل. وفي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ ردّ على المشبهة، وفي قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ رد على المعطلة[1].

(١) «تفسير الطبري»: (٦/ ٢١٣)، و«شرح العقيدة الطحاوية»: لابن أبي العز الدمشقي (١/ ١٢٤)، و«البحر المحيط» لأبي حيان: (٧/ ٥١٠) وفيه أنَّ «المثل» يطلق على نفس الشيء، وأنَّ العرب تقول: مثلك لا يفعل كذا، كأنهم إذا نفوا الوصف عن مثل الشخص كان نفياً عن الشخص، وهو من باب المبالغة. اهـ. وفي «النبأ العظيم» لدراز: (ص/ ١٣٢ ـ ١٣٣) ذكر أنَّ بعض العلماء قالوا إنَّ «الكاف» في الآية زائدة، فراراً من الوقوع في الاستحالة العقلية التي يُفضي إليها بقاء الكاف على معناها الأصلي؛ لأن معناها حينئذٍ: ليس مثله شيء، ففي ذلك إثبات للمثل ونفي لمثل المثل، وهذا لا يصح، فلجؤوا إلى القول بزيادة «الكاف». وقالت طائفة من العلماء: ليس في الكاف ما يؤدي إلى المستحيل العقلي لا نصًّا ولا احتمالاً، وحجتهم في ذلك أن نفي مثل المثل يتبعه عقلاً نفي المثل أيضاً. والصحيح أنه لو حذفت «الكاف» عن الآية، لأصبح المعنى نفي المثل المكافىء التام المماثلة فحسب، مما يورث الوساوس في النفس، ويحتمل وجود رتبة لا تماثل الألوهية تماماً، ولكنها تليها مباشرة! فجاء حرف «الكاف» ليقطع كل شبهة ويحسم كل وسواس بوجود المثيل أو شبهه، وكأنَّه يقول: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلاً لله، فضلاً عن أن يكون مثلاً له مماثلة تامة، وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى. اهـ. وانظر: «خصائص القرآن الكريم»: (ص/ ٤٩).

الثاني: قول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. [الإسراء: ٨٢].

(مِن) في الآية: هل هي للتبعيض أم لبيان الجنس؟! الصحيح أنَّها لبيان الجنس: أي أنَّ القرآن كله شفاء. ومن قال إنَّها للتبعيض، فقد قصد أنَّ بعض القرآن شفاء دون بعض، وهو قولٌ سقيم لا حجة له، والشرع والعقل والحسّ بخلاف ذلك[1].

الثالث: قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾. [الزخرف: ٨١].

فقد اختلف المفسرون في معنى (إن) في الآية، فقالت جماعة من أهل العلم: إنها شرطية، واختاره غير واحد، وممن اختاره ابن جرير الطبري، وابن كثير، وغيرهما.

وقالت جماعة آخرون: إن لفظة (إن) في الآية نافية، والمعنى: ما كان لله ولد، وعلى القول بأنها نافية ففي قوله: ﴿فأنا أول العابدين﴾ ثلاثة أوجه:

الأول: ـ وهو أقربها ـ: أن المعنى: ما كان لله ولد، فأنا أول العابدين من المنزهين له عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

---

(١) «مدارج السالكين»: ٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢). والدليل على أنَّ «مِنْ» في الآية يُرادُ بها: بيان الجنس؛ قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

الثاني: أن معنى قوله: ﴿فأنا أول العابدين﴾ أي: الآنفين المستنكفين من ذلك؛ يعني القول الباطل المفترى على ربنا الذي هو ادعاء الولد له.

الثالث: أن المعنى ﴿فأنا أول العابدين﴾ أي: الجاحدين النافين أن يكون لله ولد، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

والراجح من هذين القولين هو القول الثاني، وهو أن (إن) نافية، والقول بأن (إن) شرطية لا يمكن أن يصح له معنى بحسب وضع اللغة العربية التي نزل بها القرآن(١).

ثانياً: لا تنس أنَّ الوقوف على حدود الألفاظ والمعاني على منهج الرعيل الأول؛ مَطْلبٌ نفيس يعين كثيراً على فهم كتاب الله وتدبُّره، ويثمر خشية الله تعالى. وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال: «**إنَّ القرآن أُنْزِل على سبعة أحرف**»(٢). والمراد بسبعة أحرف: سبع لغات توقيفية مفرقة في القرآن، فبعضه نزل بلغة قريش، وبعضه نزل بلغة هوازن، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة أهل اليمن، وكذلك سائر اللغات ومعانيها في هذا كله واحدة. قال الإمام البغوي ـ رحمه الله تعالى ـ: «وليس معنى هذا أن يقرأ كل فريق بما شاء فيما

---

(١) «تفسير الطبري»: (١١/ ٢١٥ ـ ٢١٧)، و«البحر المحيط» لأبي حيان: (٨/ ٢٨ ـ ٢٩)، و«أضواء البيان»: (٧/ ٢٨٧ ـ ٣٠٥) وفيه تفصيل واسع للمسألة.

(٢) «البخاري»: (رقم الحديث: ٢٤١٩)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ٨١٨).

يوافق لغته من غير توقيف، بل كل هذه الحروف منصوصة، وكلها كلام الله نزل به الروح الأمين على الرسول ﷺ»[1].

ولارتباط الألفاظ بالمعاني، فإنَّ الاختلاف في الإعراب يسبب الاختلاف في الحكم. والدليل على هذا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾. [المائدة: ٦]. فقد قرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وحفص، بفتح اللام من «وأرجلَكم»، وقرأابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، بالكسر. فذهب الجمهور إلى العمل بقراءة النصب، وأجمعوا على غَسْل الرِّجلين، ومسحهما إن كانتا في خُفّين. وذهب الرافضة إلى الأخذ بقراءة الجرّ في «وأرجلِكم»، ونقل ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين. وخرَّج الجمهور قراءة الجرّ بعدة تخريجات، منها:

(أ) إنَّ لفظة «وأرجلِكم» معطوفة على الأيدي، وإنما خفضت للجوار، كما تقول العرب: هذا جُحْرُ ضب خربٍ، بجر (خَرِب) لجواره (ضبّ) المجرور بالإضافة، والأصل فيه الرفع؛ لأنه صفة لـ(جُحْر).

(ب) إنَّ الآية جاءت من باب العطف على اللفظ دون

---

(١) «شرح السنة»: (٤/ ١١). وانظر بحثاً وافياً عن هذه المسألة في «اختلاف المفسرين» للفنيسان: (ص/ ٦٧ ـ وما بعدها).

المعنى، كعادة العرب تعطف الشيء على الشيء، وإنما يَنْفَرد به أحدهما دون الآخر.

(ج) إنَّ لفظ المسح في لغة العرب يطلق على الغَسْل، يقال: «مسح الله ما بك»، إذا غسَّلك وطهرك من الذنوب. ومنه قيل للرجل إذا توضَّأ: تمسَّح. وعلى هذا يحمل ما ذهب إليه بعض الصحابة والتابعين بجواز المسح[1].

* * *

إنَّ مما ينبغي للمسلم أن يتفطَّن له حين القراءة أو التلاوة: الوقوف على حقيقة الألفاظ والمعاني على الهيئة التي أرادها الله لعباده، وهي **الإيمان والإمعان**، فالإيمان يحصل بالقول والتصديق والعمل. والإمعان يحصل بالجدّ في تدبُّر الآيات والنصوص. وقد قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾. [العنكبوت: ٤٣].

وقد روي أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال على المنبر: ما كُنْتُ أفهم معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾. [النحل: ٤٧]. فما تقولون فيها؟ فسكتوا، فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوُّف: التنقُّص. فقال: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعرنا: «ذو

---

(١) «اختلاف المفسرين»: (ص/ ٩٤ ـ بتصرف يسير). ولأبي حيان في «البحر المحيط»: (٣/ ٤٥٠ ـ وما بعدها) تحقيق نفيس عن المسح والغسل، وضَّح فيه مسائل نحوية وفقهية وأصولية، أنصح بمطالعته والإفادة منه.

الرُّمَّة»[1] يصف ناقته:

تَخوَّفَ الرَّحْلُ منها تامِكاً قَرِداً كما تخوَّفَ عُود النبعة السفن

فقال عمر: عليكم بديوانكم لا تضلّوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإنَّ فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم[2].

وقد روي أنَّ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال يوماً: لم يظهر لي معنى «فَطَرَ» حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي ابتدأتها. فقال: ففهمتُ حينئذٍ موقع «فاطر السموات والأرض».

وقال أيضاً: ما كُنْتُ أدري معنى قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا**﴾. [الأعراف: ٨٩]. حتى سَمِعتُ امرأةً تقول لزوجها: تعال أُفَاتِحك، أي أُحاكمك[3].

ومن المباحث المهمة التي ينبغي الاعتناء بها ـ في هذا الباب ـ: التفطُّن لما يسمَّى بـ«**الاشتراك اللفظي**»، ويقصد به: الجمع بين المعاني المختلفة متضادة أو لا، في لفظة واحدة. وقد يأتي الاشتراك في الاسم. كلفظة «النكاح»، تُطْلق على

---

(١) غيلان بن عقبة، أحد فحول الشعراء الإسلاميين. توفي سنة (١١٧هـ).

(٢) «تفسير القرطبي»: (١٠/ ١١٠)، و«والكشاف» للزمخشري: (٢/ ٤١١)، و«التيسير في قواعد علم التفسير»: (ص/ ١٩٥ ـ ١٩٦).

(٣) «تفسير الطبري»: (١١/ ٢٨٣)، و«الدر المنثور» للسيوطي: (٣/ ٥٧)، و«التيسير» للكافيجي: (ص/ ١٩٧).

العَقْد. كقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾. [الأحزاب: ٤٩]. ويُطلق النكاح على الوطء، كقول الله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾. [البقرة: ٢٣٠].

وقد يأتي الاشتراك في الفعل، كلفظة «عسعس» في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧﴾. [التكوير: ١٧]. تطلق على الإقبال والإدبار.

وقد يأتي الاشتراك في الحرف، كحرف (مِن) فإنه يأتي لابتداء الغاية، كقول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾. [الإسراء: ١]. ويأتي للتبعيض، كقول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. [آل عمران: ٩٢]. ويأتي للسببية كقول الله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾. [نوح: ٢٥]. وقد يأتي للجنس، كقول الله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾. [الحج: ٣٠].

وفي قول الحق سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣﴾. [المائدة: ٣٣]. ذهب جماعة من العلماء إلى أنَّ (أو) في الآية للتخيير، فيكون ولي الأمر مُخَيَّراً في عقوبة قاطع الطريق بأي واحدة من العقوبات المذكورة، وهو قول ابن عباس، والضحاك، والحسن البصري، وعطاء، وهو مذهب مالك، ورواية لأحمد.

وذهب الشافعي وأبو حنيفة ورواية لأحمد: أن حرف (أو) في الآية للتفصيل والتبعيض، فمن حاربَ وقَتل وأخَذَ المال قُتل وصُلب، ومن قتل، ولم يأخذ المال قُتِل، ومن أخَذَ المال ولم يَقْتُل قُطِعَتْ يدهُ ورِجْلُهُ من خِلاف، واحتجوا بحديث: «**لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: زنا بعد إحصان، أو كفر بعد إيمان، أو قَتْلُ نفسٍ بغير نفس**»(١).

والمقصود هنا أن يجتهد المسلم في فهم كلام الله تعالى على مُراد الله، فقد ذمَّ الله سبحانه أقواماً جمعوا خصلتين من خصال السُّوء: التكذيب بالقرآن، وعدم فهمه، يقول الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾. [يونس: ٣٩].

وكتاب الله تعالى مُيسَّر لمن يَسَّرهُ الله له، «فلا يجوز أن يكون الله أنزل كلاماً لامعنى له، ولا يجوز أن يكون الرسول ﷺ وجميع الأمة لا يعلمون معناه، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخِّرين، وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ، فإنَّ معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أنَّ جميع القرآن مما يمكنُ عِلْمه وتدبره، وهذا مما يجبُ القطع به»(٢).

---

(١) «اختلاف المفسرين»: (ص/٩٩ ـ بتصرف يسير)، وانظر للاستزادة: «نثر الورود على مراقي السعود»: (١/ ١٣٩ ـ وما بعدها).

(٢) «فتاوى ابن تيمية»: (١٧/ ٣٩٠).

وهنا معنى لطيف يجب التنبيه عليه وهو أنَّ معاني كتاب الله تعالى موافقة لمعاني كلام العرب، كما أنَّ ألفاظه موافقة لألفاظها. ولهذا كان لا يُمكِن لأحدٍ أن يفهم كلام الله ورسوله إلا من هذه الجهة، جهة كونه عربيًّا في ألفاظه وتراكيب تلك الألفاظ، عربيًّا في أساليبه ومعانيه، وهذا الذي دَعَى الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ أن يقول: «على الناظر في الشريعة والمتكلِّم فيها: أصولاً وفروعاً، أمران: أحدهما: ألا يتكلم في شيء من ذلك حتى يكون عربيًّا، أو كالعربي في كونه عارفاً بلسان العرب، بالغاً فيه مبالغ العرب، أو مبالغ الأئمة المتقدِّمين كالخليل وسيبويه والكسائي والفراء ومن أشبههم وداناهم، وليس المراد أن يكون حافظاً كحفظهم، وجامعاً كجمعهم، وإنَّما المراد أن يصير فهمه عربيًّا في الجملة»(١).

وأقيِّد لك هنا بعض القواعد التي رَقَنَها علماءُ الملّة في باب الألفاظ والمعاني، لتكون مِفْتاحاً للراغب وعوناً للطالب على فهم كلام الباري تعالى(٢).

---

(١) «الاعتصام»: (٢/ ٢٩٧).

(٢) انظرها بإيعاب في: «التيسير في قواعد علم التفسير» للكافيجي، و«البرهان في علوم القرآن» للزركشي، و«بدائع الفوائد» لابن القيم، و«الكليات» للكفوي، و«قواعد وفوائد لفقه كتاب الله تعالى» للجوعي، و«قواعد التفسير» للسبت.

(١) لا يجوز حمل ألفاظ الكتاب على اصطلاح حادث.

المثال: لفظة «الولي» في القرآن بمعنى «الناصر» و«الموالي»، وأولياء الله هم أنصار دينه من أهل الإيمان. والولي عند المتأخرين: من اشتهر بظهور الخوارق والكرامات على يديه[١].

(٢) تحمل نصوص الكتاب على معهود الأميين في الخطاب.

المثال: لفظة «اليدان» في القرآن، إذا أضيفت إلى الله تعالى، فإنَّ بيانها: أن لله تعالى يدين تليقان بجلاله. فاليدان صفةٌ ذاتية خبرية لله عز وجل، نُثْبِتُها لله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. ولا يصح شرعاً ولا عقلاً أنْ تكون اليدُ في هذا الموضع بمعنى النِّعمة كما تدّعي المعطلة والمعتزلة وبعض الأشاعرة[٢]!

(٣) فهم السلف للقرآن حُجَّة يُحْتَكم إليه لا عَليه.

المثال: لفظة «الهمّ» في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾. [يوسف: ٢٤].

---

(١) «تفسير المنار»: (١/ ٢١ ـ ٢٢).

(٢) «فتاوى ابن تيمية»: (٧/ ١٠٦ ـ وما بعدها)، و«رسالة إلى أهل الثغر»: (ص/ ٢٢٥)، و«أصول الاعتقاد» للالكائي: (٣/ ٤١٢). وانظر بحثاً مفيداً عن تحريف معنى صفة اليدين لله تعالى وتفنيد الشبه في المسألة في «المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف» للغامدي: (١/ ٣٧١ ـ ٣٧٨).

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ: «الهمُّ همَّان: همُّ خَطَراتْ، وهَمُّ إصرار. فيوسف عليه السلام همَّ همًّا تَركه لله فأُثيب عليه. وتلك همَّت همّ إصرار ففَعلتْ ما قَدَرتْ عليه من تحصيل مرادها، وإن لم يحصل لها المطلوب»[1].

(٤) في تفسير القرآن بمقتضى اللغة يراعى المعنى الأغلب والأشهر والأفصح دون الشاذّ أو النادر.

المثال: لفظة «البَرْد» في قول الله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾. [النبأ: ٢٤].

معناها الصحيح هنا: «ما يُبَرِّد حر الجسم». وقد فسرها بعض المفسرين بمعنى «النوم» وهو تفسير له وجه في اللغة، لكنَّه نادر، وليس هذا موضعه[2].

(٥) قد يتجاذب اللفظة الواحدة المعنى والإعراب؛ فيُتمسَّك بصحة المعنى ويؤوّل لصحة الإعراب[3].

المثال: قال الله تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾. [العاديات: ٩ ـ ١١]. فالمعنى يقتضي أنَّ العامل في «إذا» قوله: «خبير» فهو خبير بهم إذا بُعثر ما في القبور وحُصِّل ما في

---

(١) «فتاوى ابن تيمية»: (٦/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥)، و«أعلام الموقعين»: (٤/ ١١٨ ـ ١٥٦).

(٢) «تفسير القاسمي»: (١/ ٢٦٢)، و«قواعد التفسير»: (١/ ٢١٣).

(٣) «البرهان» للزركشي: (١/ ٣٠٩)، و«قواعد التفسير»: (١/ ٢١٧).

الصدور. لكنَّ الإعراب يمنع من ذلك؛ لأن ما بعد «إنَّ» لا يعمل فيما قبلها. فاقتضى هذا الأمر أن يُقدَّر لما قبل «إنَّ» عامل آخر.

(٦) كلُّ معنى مستَنْبَط من القرآن غيرُ جارٍ على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء[١].

المثال: زعم بعضُ أهل الأهواء أنَّه يجوز للرجل أن يتزوَّج تسعُ نسوة حرائر، مستدلين بقول الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾. [النساء: ٣]. وزعم آخرون بجواز أكل شَحْم الخنزير؛ لأن الله لم يُحرِّمه في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾. [المائدة: ٣].

(٧) القرآنُ عربيٌّ فيُسْلَك به في الاستنباط والاستدلال مسلك العرب في تقرير معانيها[٢].

---

(١) «الموافقات»: (٣/ ٣٩١ ـ وما بعدها). والتحقيق هنا أن يقال إنَّ «الواو» في آية سورة النساء ليس للجمع، إنما هو لبيان النوع المذكور، وقد قال القرطبي في «التفسير»: (٥/ ١٧): «العرب لا تدع أن تقول (تسعة) وتقول: اثنين وثلاثة وأربعة، وكذلك تستقبح ممن يقول: أعط فلاناً أربعة، ستة، ثمانية، ولا يقول (ثمانية عشر)». أما مسألة شحم الخنزير؛ فالأصل التحريم؛ إذ شحم الخنزير بعض لحمه، وإذا أطلق اللحم دخل فيه معنى الشحم تبعاً. انظر تفصيل هذه المسألة في «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥٤)، و«حاشية ابن عابدين»: (٥/ ١٩٦)، و«المجموع»: (٩/ ٣٩)، و«الموسوعة الفقهية»: (٢٠/ ٣٣).

(٢) «تفسير الطبري»: (٣/ ١٦١)، و«قواعد التفسير»: (١/ ٢٣٣).

المثال: معنى قول الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾. [البقرة: ٦٩]. قال بعض المفسرين: أيْ صفراء القَرْن والظِّلْفِ، وقال بعضهم: سوداء شديدة السواد. ولا تَنْعَتُ العَرَبُ شيئاً من الألوان بنعتِ «الفاقع» إلا اللَّون «الأصفر». والفاقع معناه: شديد الصُّفْرَة. ومن أقوال العرب: أخْضَر مدهام، أوْرَق خطباني، أبيض ناصع، أحمر قانٍ، أسود حالِك، أسود غربيب.

(٨) لا يجوز أن يُحْمَل كلام الله عز وجل على مجرد الاحتمال النحوي أو اللُّغوي[1].

المثال: قال بعضُ الناس في قول الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. [النساء: ١٦٢]. إنَّ «المقيمين» مجرور بواو القسم؛ وهو تقدير ضعيف يأباه المعنى المراد. والصحيح أنَّ «المقيمين» منصوبة، وسبب النَّصْب: المدح الذي سيقت لأجله. وتقدير الكلام: أمدح المقيمين، أو أعني المقيمين. والنَّصب على المدح جائز في كلام فصحاء العرب، كقول

---

(١) «فتاوى ابن تيمية»: (١٥/ ٩٤)، و«بدائع الفوائد»: (٣/ ٢٧ ـ ٢٨) وفيه: «فتدبر هذه القاعدة، ولتكن منك على بال، فإنك تنتفع بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها، وتقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه»، و«تفسير الطبري»: (٢/ ٢٢٧)، و«البحر المحيط» لأبي حيان: (٣/ ٤١١ ـ وما بعدها).

الشاعر:

وكل قوم أطاعوا أمر سيِّدهم إلا نُميراً أطَاعتْ أمر غاويها(١)

وهناك أقوال أخرى في توجيه إعراب «والمقيمين» ذكرها ابن جرير الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ واختار هو عطف «المقيمين» على (ما) في قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

ويُردُّ على ابنِ جرير ـ رحمه الله تعالى ـ بقول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾. [البقرة: ١٧٧]. فقوله: «والصابرين» منصوبة على المدح، لأن العرب ـ إذا تعدَّدت صفات الموصوف ـ يُخالفون بين إعراب أولها وأوسطها، ثم يرجعون بآخرها على أولها. وقد وافق القرآنُ أسلوب العرب هذا كما في آية سورة البقرة السابقة. والله أعلم.

(٩) المخالفة بين إعراب المعطوفين يدل على اختلاف معنييهما(٢).

المثال: قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾. [البقرة: ١٩٧]. فقد قرأ «ابن كثير» و«أبو عمرو»: «فلا رفثٌ ولا

---

(١) القائل: «مالك بن خياط العكلي»، كما في «الكتاب» لسيبويه: (٢/ ٦٤)، ونسبها البغدادي في «خزانة الأدب»: (٥/ ٤٢) إلى «ابن حماط العكليّ».

(٢) «تفسير الطبري»: (٤/ ١٥٤).

فسوقٌ» بالرفع المُنوَّن على آخرهما، ونصَبَ لفظة: «ولا جدال». قال أبو عبيد: «وإنَّما افترقت الحروف عندهم لأنهم جعلوا قوله: «فلا رفث ولا فسوق» بمعنى النهي. وتأوَّلوا في قوله: «ولا جدالَ»: أن لا شك في الحج ولا اختلاف في أنه في ذي الحجة. وقد اختار ابن جرير ـ رحمه الله تعالى ـ قراءة «ابن كثير» و«أبي عمرو»، واستدل بقوله ﷺ: «**من حجَّ لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أُمُّه**»[1]. ولم يضمّ إليهما الجدال لاختلاف معناه عن ما قبله. أما حُجَّة من قرأ بالنَّصْب على أواخر حروف الكلمات الثلاث: فهي: أنَّ حرف النهي دخل على الكلمات الثلاث، وإنَّه أبلغ للمعنى المقصود، والفتح عندهم أولى؛ لأنَّ النفي به أعمُّ والمعنى عليه[2].

(١٠) افهم معاني الأفعال على ضوء ما تتعدَّى به[3]:

المثال: فِعل «نظر» إذا عُدِّي بنفسه فمعناه التوقُّف والانتظار، وإذا عُدِّي بإلى فهو المشاهدة بالأبصار، وإذا عُدِّي بفي فهو التفكر والاعتبار. فدليل الأول قول الله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾. [الحديد: ١٣]. ودليل الثاني قول الله

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ١٥٢١)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ١٣٥٠).

(٢) «قواعد التفسير»: (١/ ٢٥٦).

(٣) «قواعد وفوائد لفقه كتاب الله تعالى»: (ص/ ٢٦)، و«الفروق اللغوية»: (ص/ ١٤).

تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾. [القيامة: ٢٢، ٢٣].
ودليل الثالث قول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. [الأعراف: ١٨٥].

(١١) العرب قد تُعلِّق الأمر بزائل والمراد التأبيد[١]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦ ـ ١٠٨]. قال ابن جرير ـ رحمه الله تعالى ـ: «يعني تعالى ذكره بقوله: «خالدين فيها»: لابثين فيها. ويعني بقوله: «مادامت السموات والأرض»: أبداً. وذلك أنَّ العرب إذا أرادت أنْ تَصِفَ الشيء بالدوام أبداً قالت: «هذا دائم دوام السموات والأرض» بمعنى أنه دائم أبداً، وكذلك يقولون: «هو باقٍ ما اختلف الليل والنهار» و«ما سَمَرَ بِنَا سَمير» و«ما لألأتْ العفر بأذنابها» يعنون بذلك كله: «أبداً». فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون به بينهم، فقال: «خالدين فيها مادامت السموات والأرض»؛ والمعنى في ذلك: خالدين فيها أبداً»[٢].

(١٢) من شأن العرب أن تُخبر عن غير العاقل بخبر العاقل إذا نسبت إليه شيئاً من أفعال العقلاء[٣]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ

---

(١) «تفسير الطبري»: (١٥/٥٥٦)، و«قواعد التفسير»: (١/٣٠٧).
(٢) «تفسير الطبري»: (١/٢٨٣).
(٣) «تفسير الطبري»: (١٥/٥٥٦)، و«قواعد التفسير»: (١/٣٠٧).

﴿وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾. [يوسف: ٤]. قال ابن جرير ـ رحمه الله تعالى: «وقال ﴿ساجدين﴾ والكواكب والشمس والقمر إنما يخبر عنها بـ«فاعلة» و«فاعلات»، لا بالواو والنون، إذ هما علامة جمع أسماء ذكور بني آدم أو الجن، أو الملائكة. وإنما قيل ذلك كذلك؛ لأن السجود من أفعال من يُجْمَعُ أسماء ذكورهم بالياء والنون، أو الواو والنون، فأخرج جمع أسمائها مخرج جمع أسماء من يفعل ذلك، كما قيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾. [النمل: ١٨]. والله أعلم.

(١٣) زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى[١]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾. [نوح: ١٠]. فقوله: ﴿غفّاراً﴾ أبْلَغ من «غافِر» لأنَّ التضعيف يدلُّ على كثرة المغفرة وتكررها. والله أعلم.

(١٤) الغالب في القرآن وفي كلام العرب أنَّ الجوابَ المحذوف يُذكَرُ قبله ما يدلُّ عليه[٢]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. [الرعد: ٣١]. قال العلامة محمد الشنقيطي ـ رحمه الله تعالى ـ: «وجواب الآية محذوف. قال بعض العلماء: تقديره: لكان هذا القرآن.

---

(١) «البرهان» للزركشي: (٣/ ٣٤).

(٢) «أضواء البيان»: (٣/ ٦٠، ١٠٢)، و«قواعد التفسير»: (١/ ٣٦٨).

وقال بعضهم: تقديره: لكفرتم بالرحمن. ويدل لهذا الأخير قوله قبله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾. [الرعد: ٣٠] والله أعلم.

(١٥) حذف جواب الشرط يدلُّ على تعظيم الأمر وشِدَّته في مقامات الوعيد[١]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. [السجدة: ١٢]. وتقدير الجواب: لرأيتَ أمراً عظيماً لا يُدْرَك بالوصف. والله أعلم.

(١٦) التقدُّم في الذِّكر لا يعني التقدُّم في الوقوع والحُكم[٢]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾. [الأحزاب: ٧]. فقد قدَّم ذكر النبي ﷺ على نوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، مع أنَّهم وجدِوا قَبْله.

(١٧) لكل حرف من حروف المعاني وَجْهٌ هو به أولى من غيره، فلا يجوز تحويل ذلك عنه إلى غيره إلاَّ بحُجَّة[٣]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾. [البقرة: ١٨٧].

والرَّفثُ لا يتعدَّى بـ«إلى» إلا على تضمينه معنى

---

(١) «قواعد وفوائد لفقه كتاب الله تعالى»: (ص/٢٦).

(٢) «الكليات» للكفوي: (ص/١٥٩، ١٠٦٦)، و«قواعد التفسير»: (١/ ٣٨٠).

(٣) «تفسير الطبري»: (١/ ٢٩٩). وقد سبق التعريف بحروف المعاني في الصفحات السابقة.

الإفضاء. وهو أبلغ. وقال سبحانه: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾. [الأعراف: ١٠٥]. فالأصل: «من عباده»، لكن جاءت التعدية بـ«عن» لتضمن ما قبلها معنى العفو والتصفُّح، والله أعلم.

(١٨) إذا دخلت الألف واللام على اسم موصوف اقتضت أنَّه أحق بتلك الصفة من غيره[١]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾. [الفاتحة: ٦]. فاللّامُ هنا للعهد العلمي الذهني؛ لأنَّ المسلم يطلب الهداية إلى طريق مُعيَّن، يُوصِلُ إلى رضوان الله وجَنَّته.

(١٩) إذا كان في الآية ضمير يحتمل عَوْدُهُ إلى أكثر من مذكور، وأمكن الحملُ على الجميع، حُمِل عليه:

المثال: قول الله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ۝١١٠﴾. [طه: ١١٠].

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله تعالى ـ: «وقد اُختلف في تفسير الضمير في (به)، فقيل: هو الله سبحانه، أي: ولا يحيطون بالله علماً، وقيل: هو ما بين أيديهم وما خلفهم. فعلى الأول يرجع إلى العالِم، وعلى الثاني يرجع إلى المعلوم، وهذا القول يستلزم الأول من غير عكس، لأنهم إذا

---

(١) «بدائع الفوائد»: (٢/ ١٢).

لم يحيطوا ببعض معلوماته المتعلِّقة بهم، فإن لا يحيطوا علماً به سبحانه أولى»[1].

(٢٠) إذا ورد مُضافٌ ومضاف إليه، وجاء بعدهما ضمير، فالأصل عوده للمضاف[2]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾. [إبراهيم: ٣٤]. فالهاء في «تحصوها» عائدةٌ على المضاف: «نعمة». وفي قول الله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾. [النحل: ١١٤]. فالهاء في «إيَّاه» عائد على «الله».

(٢١) قد يجيء الضميرُ متصلاً بشيء وهو لغيره، أو عائداً على مُلابِس ما هوَ له[3]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾. [المؤمنون: ١٢]. فالإنسان هنا: آدم عليه السلام. وفي قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾. [المؤمنون: ١٣]. فهذه الآية لولده؛ لأن آدم عليه السلام لم يخلق من نطفة. وفي قول الله تعالى: ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾. [النازعات: ٤٦]. الهاء في «ضحاها» تعني: ضحى يومها، لا ضحى العشية نفسها؛ لأن العشيَّة لا ضحى لها.

---

(١) «الصواعق المرسلة»: (ص/ ١٣٧٢).

(٢) «قواعد التفسير»: (١/ ٤٠٣).

(٣) «البرهان» للزركشي: (٤/ ٢٨، ٤٠).

(٢٢) إذا جتمع في الضمائر مراعاة اللفظ والمعنى بُدِىء باللفظ ثم بالمعنى[١]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾. [البقرة: ٨]. فأُفْرِدَ أولاً بقوله: «من يقول» وهذا باعتبار اللفظ، ثم جُمِعَ باعتبار المعنى بقوله: «وما هم بمؤمنين». وعِلَّة هذا أنَّ قوله «من يقول» في معنى الجمع وإن كان لفظه مفرداً.

(٢٣) إذا كان للاسم الواحد معانٍ عدَّة حُمِل في كل موضعٍ على ما يقتضيه ذلك السياق[٢]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾. [البقرة: ٢١٣]. أي: مِلَّة واحدة. وفي قول الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾. [هود: ٨]. الأمَّةُ هنا بمعنى: المدَّة الزمنية. وفي قول الله تعالى: ﴿ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾. [الأنعام: ٣٨]. الأمة هنا بمعنى: الجنس. وفي قول الله تعالى: ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾. [القصص: ٢٣]. الأمَّةُ هنا بمعنى: الجماعة من الناس.

(٢٤) بعضُ الأسماء الواردة في القرآن إذا أُفرِدتْ دلَّت على المعنى العام المناسب لها، وإذا قُرِنت مع غيرها دلَّت على

---

(١) «الكليات»: (ص/٦٥٨)، و«الإتقان» للسيوطي: (٢/٢٨٨ ـ وما بعدها).

(٢) «تفسير القاسمي»: (١/٢٦٢)، و«نزهة الأعين النواضر»: (ص/١٤٣).

بعض المعنى، ودلَّ ما قُرِن معها على باقيها[1]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾. [الفاتحة: ٥]. وقوله سبحانه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾. [هود: ١٢٣]. فالعبادة إذا أطلقت تناولت جميع ما يُحبُّه الله تعالى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا قُرِنت مع التوكُّل أو الاستعانة، فإنها تفسَّر بجميع المأمورات الظاهرة والباطنة، ويُفسَّر التوكُّل باعتماد القلب على الله في تحصيل جميع المنافع، ودفع جميع المضارّ.

(٢٥) عطف الجملة الاسمية على الفعلية يُفيد الدوام والثبات[2]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾. [الأنعام: ٥٦]. فقوله: «قد ضَلَلْتُ إذاً» جملة فعلية تُفيدُ التجدُّد والحدوث. وقوله: «وما أنا من المهتدين» جملة اسمية تُفيدُ الدوام والثبوت. فلما عطف قوله: «وما أنا من المهتدين» على قوله: «قد ضللت»؛ صار المعنى: أنَّه لو اتبع أهواءهم لبقي في الضلال وعدم الاهتداء دائماً، لأنَّهم لن يأتوه بخير أبداً. والله أعلم.

(٢٦) العرب إذا جاءت بين الكلامين بجحدين كان الكلام

---

(١) «قواعد التفسير»: (١/ ٤٢٤).

(٢) «فتح القدير»: (٢/ ١٤).

إخباراً[1]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾. [الأنبياء: ٨]. والمعنى: إنَّما جعلناهم جسداً يأكلون الطعام.

(٢٧) نفي الاستطاعة قد يُرادُ به نفي القدرة والإمكان، وقد يُرادُ به نفي الامتناع، وقد يُرادُ به الوقوع بمشقة وكُلْفَة[2]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ۝٩٧﴾. [الكهف: ٩٧]. وقوله سبحانه: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. [المائدة: ١١٢]. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧﴾. [الكهف: ٦٧].

(٢٨) قد يَرِدُ نفيُ الشيء مُقيّداً، والمراد نفيُهُ مطلقاً، مبالغة في النفي وتأكيداً له[3]:

المثال: قول الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾. [آل عمران: ٢١]. ومعلوم بالضرورة أنَّ قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير حق، وإنما ورد كذلك مبالغةً في النفي، تنبيهاً على أنَّ قتلهم لا يكون إلا بغير حق.

(٢٩) الشَّرط لا يقتضي جواز الوقوع[4]:

---

(١) «البرهان» للزركشي: (٤/ ٧٧).

(٢) «البرهان»: (٣/ ٤٠٧).

(٣) «البرهان»: (٣/ ٣٩٦ ـ وما بعدها).

(٤) «تفسير القرآن العظيم»: (ص/ ٧٠٤ ـ ط ابن حزم).

المثال: قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٨٨﴾. [الأنعام: ٨٨].

وهذا من باب الافتراض؛ لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام معصومون.

(٣٠) لا يُخالفُ بين الألفاظ إلاَّ لاختلاف المعاني:

المثال: قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾. [الكافرون: ١ ـ ٣]. فالنفي في هذه الآيات جاء على هيئات مُتعدِّدة؛ لأن قوله: «لا أعبد ما تعبدون» معناه: لا أعبد في المستقبل ما تعبدون في المستقبل، وقوله: «ولا أنا عابد ما عبدتم» معناه: ولا أنا عابدٌ في الحال ما عبدتم في المستقبل. وقوله: «ولا أنتم عابدون»: معناه: أنتم لا تعبدون في الحال ما أعبد في المستقبل. والمقصود نفي عبادته لآلهتهم في الأزمنة الثلاثة: الحال والماضي والاستقبال[١].

(٣١) الاقتران في النَّظْم لا يستلزم الاقتران في الحكم:

المثـال: قـول الله تعـالـى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾. [النحل: ٨]. ففي الآية الامتنان على الخلقِ بأمرين: الركوب والزينة. فتشترك تلك الأنواع الثلاثة من

(١) «فتاوى ابن تيمية»: (١٦/ ٥٥١). ولشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ تهميشات نفيسة على بحوث هذه السورة، وهي في غاية التحقيق والنفاسة، فقف عليها لزاماً في المصدر المشار إليه.

الدواب في ذلك. ولا يستلزم ذلك الاشتراك حكماً جديداً منفصلاً، مثل: القول بتحريم لحوم الخيل، بدليل اقترانها بالبغال والحمير(١)!

(٣٢) التخيِّير لا يقتضي التسوية:

المثال: قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾. [المزمل: ١ ـ ٤].

ففي هذه الآية خيَّر الله تعالى رسوله ﷺ بين الثلث والنصف والثلثين؛ لأن قوله تعالى: «أو انقص منه قليلاً» أي انقص من النِّصف، والمراد: الثُّلث. وقوله: «أو زِد عليه» أي على النِّصف، والمراد بالزيادة على النصف: السدس، فيكون المراد: الثُّلُثين.

وهذا تخيير وقع بين ثلاثة أشياء، ومع ذلك فالثُّلث واجب لابدّ منه، والنصف والثلثان مندوبان، يجوز تركهما وفعلهما أولى. فقد وقع التخيير بين الواجب والمندوب، بسبب أن التخيير وقع بين أقل وأكثر، والأقل جزء، فهذا مفارق للتخيِّير بين خصال الكفَّارة(٢).

* * *

(١) «أضواء البيان»: (٢/ ٢٥٦).

(٢) «الفروق» للقرافي: (٢/ ٨).

ثالثاً: قِفْ على أسباب النزول ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، إذ «بيان سبب النزول طريقٌ قويٌّ في فهم معاني القرآن»[1]. وقد قال ابن تيمية: «معرفة سبب النزول يُعين على فهم الآية، فإنَّ العِلم بالسبب يورث العلم بالمُسبَّب، ولهذا كان أصح قولي الفقهاء أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيَّجها وأثارها»[2]. ولمعرفة أسباب النزول فوائد جَمَّة من أعظمها ما ذكره الزركشي: «معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ومنها تخصيص الحكم عند مَنْ يرى أنَّ العِبرة بخصوص السبب، ومنها الوقوف على المعنى، ومنها أنْ يكون اللفظُ عامًّا ويقوم الدليل على التخصيص، ومنها دفع توهُّم الحصر، ومنها إزالة الإشكال»[3].

ومن الطرائف المُستملحة في هذا الباب ما وقع لمروان بن الحكم حين قرأ قول الله تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾. [آل عمران: ١٨٨]. فقد قال: «لئن كان كل امرىءٍ فرح بما أُوتي، وأحبَّ أنْ يُحمَد بما لم يفعل معذَّباً لنُعذبنَّ أجمعون»، فبيَّن له ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي ﷺ عن شيء

(١) «الإتقان»: (١/ ٢٨).

(٢) مقدمة في أصول التفسير»: (ص/ ٤٧).

(٣) «البرهان»: (١/ ٢٢).

فكتموه إيَّاه، وأخبروه بغيره، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه[1].

اعلم ـ هداني الله وإياك للحق ـ أن طريق معرفة سبب النزول هو النقل الصحيح عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ الذين شاهدوا التنزيل، وعاينوا الوقائع والأحداث التي نزل القرآن بشأنها.

وما أحسن ما قال الواحدي ـ رحمه الله تعالى ـ: «ولا يحلُّ القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدُّوا في الطِّلاب، وقد ورد الشرع بالوعيد للجاهلِ ذي العِثَار في هذا العلم بالنَّار»[2].

ولا ريب أنَّ سبب النزول إذا رُوي عن الصحابي فإنه يكون مقبولاً، وإن لم يُعْتَضد برواية أخرى تُقوِّيه، وذلك لأن قول الصحابي فيما لا مجال للاجتهاد فيه حكمه حكم المرفوع إلى النبي ﷺ. فمثال ذلك ما رواه جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحوَل، فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾. [البقرة: ٢٢٣]»[3].

أما سبب نزول المرسل عن التابعي، فلا يُقبَل إلا إذا

---

(١) «البخاري»: (رقم الأثر: ٤٥٦٨)، و«مسلم»: (رقم الثر: ٢٧٧٨).

(٢) «أسباب النزول» للواحدي: (ص/ ٤).

(٣) «البخاري»: (رقم الأثر: ٤٥٢٨)، و«مسلم»: (رقم الأثر: ١٤٣٥).

اعتُضِد بمرسل آخر وكانت له شواهد تُقوِّيه، عندئذٍ يكون مقبولاً وله حكم المرفوع. أما إذا لم يُعْتَضد بمرسلٍ آخرٍ ولم تكن له شواهد ولا طرق تُقوِّيه، فعندئذٍ لا يجب الأَخذ به ولا قبوله[1].

وهنا نكتةٌ لطيفة ينبغي الاعتناءُ بها في هذا الباب، وهي هل العِبرةُ بعموم اللَّفظ أم بخصوص السبب؟ فكثيراً ما تَرِدُ هذه المسألة في مباحث أسباب النزول، لتعلُّقها بمعاني الآيات، واستنباط الأحكام والفوائد. ولأبي العباس ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ تأصيلٌ في غاية النَّفاسة، أسُوقهُ لتقرير هذه المسألة المفيدة. يقول: «والناس وإنْ تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختصُّ بسببه؟ فلم يقل أحدٌ من علماء المسلمين إنَّ عمومات الكتاب والسنة تختصُّ بالشخص المعيَّن، وإنما غاية ما يقال إنَّها تختص بنوع ذلك الشخص فتعمُّ ما يُشبِهُهُ، ولا يكون العموم فيها بتحسب اللفظ، والآية التي لها سبب مُعيَّن إن كانت أمراً ونهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كان خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص ومن كان بمنزلته»[2].

وتأمَّل معي قول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ لما أورد

---

(١) «الإتقان»: (١/ ٣١).

(٢) «مقدمة في أصول التفسير»: (ص/ ٤٧).

تفسير قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾. [النساء: ٦٠]. فقد قال بعد أنْ ساق سبب نزولها: «وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامَّةٌ لمن عدل عن الكتاب والسنة»[١].

رابعاً: تتَبَّعْ الأحكام الواردة في الآيات القرآنية، واسلك الجادَّة الصحيحة في فهمها وفِقْهها، واعلم أنَّ الأحكام الشرعية في كتاب الله العزيز تنيف على خمسمئة حكم، ولا تكاد تخلو سورةٌ من سور القرآن الكريم من الإشارة إلى حكم تكليفي أو وضعي. وقد جاء في بعض الآثار أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان يقول: «علِّموا نساءكم سورة النور»[٢].

وكثيرٌ من الآيات المفردة تتضمَّنُ بعضاً من الأحكام الشرعية، عَلِمها مَن عَلِمها، وجَهِلها مَن جَهِلها، ولا سبيل

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: (ص/٥٠٢ ـ ط ابن حزم).

(٢) «مصنف عبدالرزاق»: (١/ ٢٩٥). وقد روى مجاهد مرفوعاً: «علموا رجالكم سورة المائدة، وعلموا نساءكم سورة النور». أخرجه سعيد بن منصور في سننه، والبيهقي في شعب الإيمان، وإسناده ضعيف. وفي «البيان والتبيين» للجاحظ: (٢/ ٩٢): «إن المعلمين كانوا يعنون عناية خاصة بتحفيظ الفتيات سورة النور».

إلى كشف مكنونها إلا بالتدبُّر ومطالعة التفاسير المحقَّقة المعتمدة. لكن الواجب أن يُربِّي المسلم نفسه على الطريق الصحيح ليستنبط الأحكام بمنهجية دقيقة وقواعد راسخة. إنَّ أهم ما يُنْصَح به المسلم ـ في هذا الباب ـ أن يقرأ الآية أو السورة، ويشحذ هِمَّتهُ في التفطُّن للأحكام الشرعية والوضعية والفروق بينهما، وأنْ يُلاحظ صَيَغ الأحكام الفقهية لاسيَّما التكليفية: الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام.

فالواجب يُعرَفُ بصِيَغِهِ، وهي كما يلي:

١ ـ فِعلُ الأمر، كقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. [البقرة: ٤٣].

٢ ـ الفعل المضارع المجزوم بلام الأمر، كقول الله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٢٩﴾. [الحج: ٢٩].

٣ ـ اسم فعل الأمر، كقول الله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾. [المائدة: ١٠٥].

٤ ـ المصدر النائب عن فعل الأمر، كقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾. [محمد: ٤].

٥ ـ التصريح من الشارع بلفظ الأمر، كقول الله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾. [النساء: ٥٨].

٦ ـ التصريح بلفظ الإيجاب أو الفرض أو الكَتْب، كقول الله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾. [النساء: ١١]، وقوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾. [البقرة: ١٨٣].

٧ ـ كل أسلوب يُفيد الوجوب في لغة العرب، كقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾. [آل عمران: ٩٧].

٨ ـ ترتيب الذم والعقاب على الترك، كقول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾. [النور: ٦٣].

أما صيغُ المندوب فهي كما يلي:

١ ـ كل أمرٍ صريح إذا وجدت قرينة تصرفه من الوجوب إلى الندب، كقول الله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾. [النور: ٣٣].

٢ ـ التصريح بأن ذلك سُنَّة، لحديث: «**الخِتان سُنَّة للرجال، مكرمة للنساء**»[(١)].

٣ ـ التصريح بالأفضلية الواردة في الشرع، كقوله ﷺ: «**ومن اغتسل فالغُسل أفضل**»[(٢)].

٤ ـ كل عبارة تدلُّ على الترغيب، كقوله ﷺ لبريرة: «**لو راجعتِه**»[(٣)].

أما صيغ المباح فهي كما يلي:

١ ـ لفظ: «أحِل» كقول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾. [البقرة: ١٨٧].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند»: (٤/ ١٩٨) وإسناده حسن بشواهده.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند»: (٦/ ١٤) وإسناده صحيح. والحديث في فضل غُسل يوم الجمعة.

(٣) «البخاري»: (رقم الحديث: ٥٢٨٣).

٢ ـ لفظ: «لا جناح»، كقول الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾. [البقرة: ٢٣٦].

٣ ـ لفظ: «لا حَرَج»، كقول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾. [النور: ٦١]. وقوله ﷺ: «**افعل ولا حرج**».

٤ ـ صيغة الأمر التي صُرفت من اقتضائها للوجوب والندب إلى الإباحة بسبب قرينة اقترنت بها، كقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. [الجمعة: ١٠]. والقرينة الصارفة هي: منع الفعلِ قبل ذلك في قول الله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾. [الجمعة: ٩].

أما الصيغ التي تستعمل وتدل على الكراهة فهي كما يلي:

١ ـ لفظ: «كَرِه» وما يشتق منها، ومن ذلك قوله ﷺ: «**إن الله كره لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال**»[(١)].

٢ ـ لفظ: «بَغَضَ» وما يُشْتَقُّ منها، ومنه الحديث المروي: «**أبغَضُ الحلال إلى الله الطلاق**»[(٢)].

٣ ـ لفظ: «النَّهي»: (لا تفعل)، إذا اقترنت بها قرينة تصرفها عن التحريم إلى الكراهة، كقول الله تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾. فالنهي عن السؤال للكراهة، والقرينة الصارفةُ من التحريم إلى الكراهة هي آخر الآية:

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ١٤٧٧)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ٥٩٣).

(٢) «أبو داود»: (رقم الحديث: ٢١٧٨)، و«ابن ماجه»: (رقم الحديث: ٢٠١٨) وإسناده ضعيف.

﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾. [المائدة: ١٠١].

أما الصيغ الدالَّة على الحرام فهي كما يلي:

١ ـ لفظ: «التحريم»، كقول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾. [المائدة: ٣].

٢ ـ صيغة النهي المطلق، كقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾. [الإسراء: ٣٢].

٣ ـ التصريح بعدم الحلّ، كقوله ﷺ: «**لا يحل دم امرىء مسلم...**»(١).

٤ ـ أن يُرتِّب الشارع على فعل شيء عقوبةً، فيدلُ هذا على أنَّ هذا الفِعل حرام، كقول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾. [المائدة: ٣٨].

قال مُقيِّده ـ عفا الله تعالى عنه ـ: إذا تبيَّن ما تقدَّم فإنَّه يلزمُ المسلم الاعتناء بسبعة مقاصد تُعدُّ من الركائز الرئيسة التي يكمل بها دور تدبُّر الأحكام الشرعية في القرآن المجيد، وهي:

١ ـ معرفة العام والخاص.

٢ ـ معرفة المطلق والمقيد.

٣ ـ معرفة المنطوق والمفهوم.

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ٦٨٧٨)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ١٦٧٦).

٤ ـ معرفة أحكام الأمر والنهي.
٥ ـ معرفة الناسخ والمنسوخ.
٦ ـ معرفة القراءات المتواترة والشاذة.
٧ ـ الاستدلال لكل حكم شرعيّ في القرآن بدليل من السنة الصحيحة.

والمقصود أنْ يفهم المسلم تلك المقاصد على وجه الإجمال، وإنْ تيسَّر له أنْ يفهمها فهماً راسخاً على وجه الاستيعاب، فهذا آكدُ وأعظم نفعاً.

وفيما يلي إلماعة مختصرة في التعريف بالمقاصد السبعة[1].

أولاً: معْرِفةُ العام والخاص:

(أ) العام: هو اللفظ المُستغرِق لجميع ما يصلح له، بحسب وضع واحد، دُفْعَةً من غير حصر.

مثال ذلك: لفظ «الإنسان» في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾. [الانفطار: ٦].

فهذه اللفظة تشمل جنس الإنسان كلهم، ولا يمكن

---

(١) انظر للاستزادة: «المحصول» للرازي: (٢/ ١٠٠)، و«إرشاد الفحول» للشوكاني: (١/ ٢١٠)، و«القواعد النورانية» لابن تيمية: (ص/ ٢١٠ ـ ٢١١)، و«مذكرة أصول الفقه» للشنقيطي: (ص/ ٢٠٦ ـ وما بعدها)، و«التأسيس في أصول الفقه على ضوء الكتاب والسنة»: (ص/ ٣٢٥ ـ وما بعدها).

تخصيص أحدهم بالنِّداء، بل هو شامل لكل مكلَّف مسلم، أو كافر ذكر أو أنثى. وللعموم صيغ كثيرة مثل: «المعرف بـ أل»، و«المعرفة بالإضافة»، و«المعرف بأل العهدية»، و«الأسماء الموصولة»، و«أسماء الشَّرط»، و«أسماء الاستفهام»، و«النكرات»، و«ما دلَّ على العموم بمادته».

والعامُّ أربعةُ أقسام:

الأول: العام الباقي على عُمومه: كقول الله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾. [النساء: ٢٣]. وقوله سبحانه: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾. [هود: ٦].

الثاني: العام الوارد على سبب خاص: كقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾. [هود: ١٤]. وقوله سبحانه: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾. [البقرة: ١٩٦].

الثالث: العامُّ المخصوص: كقول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾. [آل عمران: ٩٧].

الرابع: العام المراد به الخصوص: كقول الله تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾. [آل عمران: ٣٩]. والمنادي جبريل عليه السلام لا غير.

وكقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾. [آل عمران: ١٧٣]. فالناس الأولى لفظ عام،

خُصّ به «نعيم بن مسعود»[1]، أما الناس الثانية فلفظ عامّ خُصّ به «أبو سفيان»[2].

(ب): الخاصّ: هو قَصْرُ العام على بعضِ أفراده، بدليل يدلُّ على ذلك. كقول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾. [البقرة: ٢٢٨]. فهذا عام لجميع المطلقات الحوامل وغيرهن. لكن هذا خُصِّص بقول الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. [الطلاق: ٤]. فأُخرجت الحوامل من عموم اللفظ، وهو: «المطلقات»، وجعَل عِدَّتهُن وضع الحمل، فلم يَبْق لفظ العموم «المطلقات» على عمومه، بل قَصَرَه على بَعْضِ أفراده.

وكقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾. [البقرة: ٢٢١]. فإنه مخصص بقول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾. [المائدة: ٥].

ويجوز تخصيص الكتاب بالسنة المتواترة، فقول الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾. [النساء: ١١]. مخصص

---

(١) صحابي من قبيلة أشجع، أسلم سرًّا يوم الخندق، وكتم إسلامه، وألقى الفتنة بين قبائل قريظة وغطفان وقريش، فتفرَّقوا، ثم سكن المدينة، ومات في خلافة عثمان، وقيل قتل يوم الجمل، سنة (٣٠هـ).

(٢) صخر بن حرب، صحابي من سادات قريش، تأخر إسلامه إلى سنة (٨هـ) يوم فتح مكة، وأبلى بلاء حسناً في حنين والطائف واليرموك. وتوفي بالمدينة وقيل بالشام، سنة (٣١هـ).

بقوله ﷺ: «**ليس للقاتل شيء**»[1]. وبقوله: «**لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم**»[2].

ثانياً: مَعرفةُ المطلق والمقيّد:

(أ) **المطلق**: ما دلّ على شائع في جنسه بلا قيد. وأكثر مواضع الملطق النكرة في سياق الإثبات، كقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾. [المجادلة: ٣]. وكقوله سبحانه: ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ ﴾. [النساء: ٢٣]. فإنه نصٌّ مطلق لم يُقيَّد بالدخول، فيُعمل به على إطلاقه، فتحرم أمُّ الزوجة بمجرد العقدِ على بنْتِها، سواءٌ دخل بها أم لم يدخل.

(ب) **المقيّد**: وهو ما دلَّ على شائع في جنسه مقيَّد بصفةٍ من الصفات، كقول الله تعالى: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾. [النساء: ٩٢]. ففي كفَّارة القتل يُشترط أن تكون الرقبة المحرَّرة مؤمنة، ويُحمل هذا القيد أيضاً على ما جاء مُطلقاً في كفَّارة الظهار: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾. [المجادلة: ٣].

ثالثاً: معرفة المنطوق والمفهوم:

(أ) **المنطوق**: هو ما دلَّ عليه اللفظ في محل النطق، وقد يكون المنطوق صريحاً كقول الله تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ

---

(١) «أبو داود»: (رقم الحديث: ٤٥٦٤)، والبيهقي في «السنن»: (٦/ ٢٢٠)، وإسناده صحيح.

(٢) «البخاري»: (رقم الحديث: ٦٧٦٤)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ١٣٥١).

﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾. [البقرة: ٢٧٥]. وقد لا يكون صريحاً كقول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. [البقرة: ٢٣٣]. فقد دلَّت هذه الآية بدلالة الالتزام على أنَّ النسب يكون للأب، لا للأم، وعلى أن نفقة الولد على الأب، دون الأم.

(ب) **المفهوم**: هو معنىً يُستفاد من اللفظ في غير محل النُّطق، كقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾. [الإسراء: ٢٣]. فقد دل اللفظ بمفهومه على تحريم ضَرب الوالدين وشتمهما وسبِّهما وقتلهما، وأيّ نوع من أنواع الإيذاء.

وكقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾. [النساء: ١٠]. فمفهوم الآية: تحريم إحراق مال اليتيم، أو تبذيره.

رابعاً: معرفةُ أحكام الأمر والنهي:

(أ) **الأمر**: هو طلب إيجاد الفِعل بالقول على وجه الاستعلاء، كقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. [البقرة: ٤٣]. وقد يكون الأمر من الأدنى، كقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾. [البقرة: ٢٨٦][1]، وكقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾. [الأعراف:

---

(١) وهنا يُفيدُ الدُّعاء كما هو معلوم.

١٢٦]. وقد يكون الأمر على وجه الالتماس، كقول الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾. [الكهف: ١٩].

وللأمر صيغٌ مُعيَّنة تدلُّ عليه[١]، منها:

١ ـ فعل الأمر على وزن «افعل» كقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. [هود: ١١٤]. أو على وزن افعلوا كقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. [البقرة: ٤٣].

٢ ـ اسم فعل الأمر، كقول الله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾. [المائدة: ١٠٥].

٣ ـ المصدر النائب عن فعل الأمر، كقول الله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾. [محمد: ٤].

٤ ـ المضارع المقترن بلام الأمر «ليفعل» للغائب، كقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾. [الحج: ٢٩].

٥ ـ لفظ «كتب» و«أمر» و«فرض»، كقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾. [البقرة: ١٨٣]، وقوله سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾. [النساء: ٥٨]. وكقول

---

(١) المبتدعة يقولون ليس للأمر صيغ مُعينة تدلُّ عليه، وعلةُ ذلك أنهم يقولون إنَّ الكلام معنى قائم بالنفس، وحجتهم في ذلك قول الأخطل النصراني:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جُعل اللسان على الفؤاد دليلا

انظر بحثاً واسعاً عن هذه المسألة في كتاب «موقف ابن تيمية من الأشاعرة»: (ص/ ١٢٦٤ ـ وما بعدها).

ابن عمر رضي الله عنهما: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمر...»

٦ - جُملةُ الابتداء والخبر، كقول الله تعالى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾. [المائدة: ٨٩]. وكقوله سبحانه: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾. [النساء: ٩٢]. وكقوله سبحانه: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾. [آل عمران: ٩٧].

وهذه الصيغة ليست على إطلاقها، فقد لا تفيدُ الأمر، كقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾. [النساء: ٩٣]. فالمقصود بالصيغة هنا الإخبار لا غير. والله أعلم.

وها هُنا قاعدةٌ نفسيةٌ قَيَّدها شيخُ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في بعضِ مُصنَّفاته، وهي:

«أمرُ الله ورسوله إذا أُطلق كان مُقتضاه الوجوب»[1]. فإذا كانت صيغة الأمر مُجرَّدة عن القرينة فإنها تقتضي الوجوب، كقول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾. [النور: ٦٣]. فالآية نصٌّ في إثبات العقاب، ولا عقاب إلا على ترك واجب، أو فعل محظور.

وقد ذكر الأصوليون أنَّ الأمر قد يخرج عن الوجوب بقرينة. فقد يخرج إلى النَّدْبِ، كقول الله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟

---

(١) «القواعد النورانية» (ص/٢٦).

إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾. [البقرة: ٢٨٢]. والذي صرفهُ عن الوجوب ما ثبت عنه ﷺ أنه اشترى فرساً من أعرابي ولم يُشْهِد»[1]. وقد يخرج الأمر إلى الإباحة، كقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾. [المائدة: ٢]. وقوله سبحانه: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾. [الملك: ١٥]. وقد يخرج الأمر إلى التهديد، كقول الله سبحانه: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. [الكهف: ٢٩]. وقد يخرج الأمر إلى الإرشاد، كقول الله تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾. [التحريم: ٦]. وقد يخرج إلى الإهانة، كقوله سبحانه: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)﴾. [القمر: ٤٨]. وقد يخرج إلى الإكرام، كقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦)﴾. [الحجر: ٤٦]. وقد يخرج الأمر عن الوجوب إلى التسوية، كقول الله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾. [الطور: ١٦]. وقد يخرج إلى الاعتبار، كقول الله تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾. [الأنعام: ٩٩]. وقد يخرجُ إلى الإنذار، كقوله سبحانه: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾. [النساء: ٧١]. والله أعلم.

(ب) **النهي**: هو طلب الكفِّ بالقول على وجه الاستعلاء. كقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾. [الإسراء: ٣١]. وكقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾. [الإسراء: ٣٢]. ومعنى الاستعلاء: أي أنَّ الخطاب ممَّن بيده الأمر

(١) «سنن البيهقي»: (١٠/ ٨٠).

والنهي. فإن كان الخطاب ممن لا يملك ذلك، فإنه يُفيدُ الدعاء، كقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾. [البقرة: ٢٨٦]. والله أعلم.

وللنهي صيغ مُعيَّنة تدلُّ عليه، منها:

(١) صيغة المضارع مقروناً بلا الناهية «لا تفعل»، كقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾. [الذاريات: ٥١].
ومثلها: «لا تفعلوا» كقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾. [الإسراء: ٣٤].

(٢) استفادة النهي من صيغته، كألفاظ: «ينهى» و«حرمت» و«ذروا»، و«اجتنبوا»، كقول الله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾. [النحل: ٩٠]. وقوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾. [النساء: ٢٣]. وكقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾. [الأنعام: ١٢٠]. وقوله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾. [الحجرات: ١٢]. ولا يخفى أن صيغ النهي ـ عند الإطلاق ـ تقتضي التحريم، وفساد المنهي عنه، لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾. [الحشر: ٧].

وقد يخرج النهي عن التحريم لقرينة تقتضي ذلك، لمعانٍ عدَّة. فقد يخرج النهي عن التحريم إلى الإرشاد، كقول الله تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾. [المائدة: ١٠١]. وقد يخرج النهي

إلى الدعاء كقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾. [آل عمران: ٨]. وقد يخرج إلى التحقير، كقوله سبحانه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾. [الحجر: ٨٨]. وقد يخرج إلى بيان العاقبة، كقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. [إبراهيم: ٤٢]. وقد يخرج النهي عن التحريم إلى التأييس كقول الله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾. [التحريم: ٧]. والله أعلم.

خامساً: معرفة النَّاسخ والمنسوخ وأحكامهما:

النسخُ: هو رفع حكم شرعي مُتقدِّم، بخطاب شرعي متأخِّر مُنْفصل عنه منافٍ له[1].

وللنسخ ركنان: الناسخ، وهو الخِطاب الشرعي المتأخِّر المنافي للمتقدِّم والمنفصل عنه، ويجب العمل به. والمنسوخ، وهو الخطاب الشرعي المتقدِّم والمنافي للمتأخِّر، ولا يجوز العمل به.

ويعرف الناسخ من المنسوخ بتصريح النبي ﷺ،

(١) هنا فائدة مهمة يجب التنبيه عليها، وهي أن معنى النسخ عند المتقدمين يختلف عن معناه عند المتأخرين. فالمتأخرون من الفقهاء والأصوليين يعرفون النسخ بأنه: رفع حكم شرعي بدليل شرعي متراخٍ عنه. أما المتقدمون فالنسخ عندهم: العام والخاص، والمجمل والمبين، والمطلق والمقيد، وكذلك رفع الحكم الشرعي كما هو عند المتأخرين. انظر للاستزادة: «الموافقات» للشاطبي: (٣/ ٧٣ ـ ٧٤)، و«فتاوى ابن تيمية»: (١٤/ ٦٩، ١٠١ ـ وما بعدها).

كحديث: «**كُنتُ نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنَّها تُذكِّر بالآخرة**»[1]، أو بتصريح صحابي، كقول عائشة رضي الله عنها: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلوماتٍ يُحرِّمن، ثم نُسخن بخمسٍ معلومات»[2]. أو بمعرفة تاريخ المتقدِّم من المتأخِّر، كقول الله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾. [الأنفال: ٦٦]. فلفظُ الآن يدلُّ على تأخُّر الخطاب الشرعيِّ المقترن بها.

يُضاف إلى ما تقدَّم: قول الصحابي: أرخص لنا في كذا، فإنَّ الرخصة تكونُ بعد العزيمة. وقد يُستدل على المتقدِّم والمتأخِّر، بتقدُّم إسلام صحابي على آخر، ولكن لا يُقدَّم خبر المتأخِّر الإسلام على مُتقدِّم الإسلام إلا إذا عُلم أنَّ المتقدِّم مات قبل إسلام المتأخِّر، وأنْ تكون صيغةُ الخبر صريحةٌ في سماعة من النبي ﷺ، وذلك لاحتمال سماعه من صحابي آخر.

وأخيراً دلالة الإجماع: فإنها تدلُّ على وجود ناسخ، نحو قوله ﷺ: «**من شرب الخمر فاجلدوه، فإن عاد في الرابعة فاقتلوه**»[3]. فقد دلَّ الإجماعُ على نسخه.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند»: (٥/ ٧٠)، وصحَّح إسناده الألباني في «صحيح الجامع الصغير»: (٢/ ٨٤١).

(٢) «مسلم»: (رقم الحديث: ١٤٥٢).

(٣) «الترمذي»: (رقم الحديث: ١٤٤٤)، و«مسند أحمد»: (٤/ ١١) وإسناده =

ومن **القواعد الهامَّة في هذا الباب**: أنَّ القرآن يُنسَخُ بالقرآن، والسنة القطعية والظنية. والسنة تُنْسَخ بالكتاب والسنة. ومفهوم الموافقة بقسميه فحوى الخطاب ولحن الخطاب ينسخَان الكتاب والسنة، يضاف إلى ذلك: الزيادة على النص إن كانت تنفي ما أثبته النص، أو تثبت ما نفاه. وأيضاً مستند الإجماع. فهذه القواعد الهامة هي الأدلة التي يصحُّ بها النَّسخ.

واعلم ـ أرشدني الله وإيَّاك للحق ـ أنَّ هناك صوراً لا يقع فيها النَّسْخ: كالتوحيد، وأصول العبادات، وأصول المعاملات، ومكارم الأخلاق، والخبر الصريح، كالوعد والوعيد.

ومن المفيد هنا أن نُبيِّن أنه يجوز نسخُ لفظ الآية دون حكمها، ويجوز العكس، ونسخهما معاً، وذلك لوقوعه. فقد نُسخت التلاوة والحكم معاً، حيث قالت عائشة رضي الله عنها: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرِّمن، ثم نُسخنَ بخمس معلومات، فتُوفِّي النبي ﷺ وهُنَّ فيما يُقرأ من القرآن»[1]. فكانت العشرُ منسوخة الحكم والتلاوة معاً بخمس رضعات.

= صحيح.

(١) سبق تخريجه قريباً.

وقد يُنسخ الحكم وتبقى التلاوةُ، حيث نسخ حكم آية الاعتداد بالحول الثابت بقول الله تعالى: ﴿مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾. [البقرة: ٢٤٠]. بالاعتداد بأربعة أشهر وعشراً، الثابت بقول الله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. [البقرة: ٢٣٤].

وقد تنسخ التلاوةُ ويبقى الحكم، حيث نُسخت تلاوة: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله» وبقي حُكمها، وهو الرجم للمحصن.

ولا ريب أنَّه يجوز نسخُ القرآن بالقرآن، لأن الله تعالى قال: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾. [البقرة: ١٠٦]. ويجوز نسخ السنة بالقرآن؛ لأنَّ كلًّا منهما وحي، ونسخ حكم أحد الوحيين بالآخر غير ممتنع عقلاً. وقد وقع هذا في التشريع الإسلامي، حيث نُسخ تأخير الصلاة حالة الخوف الثابت ـ بالسنة ـ بالصلاة حالة الخوف، لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. [النساء: ١٠٢]. وكذلك نسخ التوجه إلى بيت المقدس الثابت بالسنة، بقول الله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. [البقرة: ١٤٤]. ومما يُضاف إلى ما تقدَّم أنه يجوز نسخ القرآن بالسنة. مثال ذلك نسخُ الوصية للوالدين والأقربين الثابتة بالقرآن، بقوله ﷺ: **«لا وصيّة لوارث»**[1].

---

(١) «أبو داود»: (رقم الحديث: ٢٤٩٤)، و«الترمذي»: (رقم الحديث: ٢١٢٠) =

سادساً: معرفةُ القراءاتِ المتواترة والشاذَّة.

يقول الإمام ابن الجزري ـ رحمه الله تعالى ـ في ضابط القراءة الصحيحة والمعتبرة: «كلُّ قراءة وافقتْ العربية، ولو بوجهٍ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً وصحّ سندها»[1].

فالقراءة الصحيحة لها ثلاثة أركان:

الأول: أن يصحَّ سندُها عن الرسول ﷺ.

الثاني: أن توافق اللغة العربية ولو بوجهٍ واحد.

الثالث: أن توافق المصحف العثماني، ولو احتمالاً[2].

والذي عليه المحققون أن كل قراءة لم يصح سندها عن النبي ﷺ؛ فإنه لا يصح القراءة بها أو العمل بمقتضاها، لأنه تقوّل على الله ورسوله ﷺ بغير علم.

ومعنى موافقتها لأحد المصاحف العثمانية الستة التي أرسلها عثمان إلى الأقطار: أن توافق ما كان ثابتاً ولو بواحدٍ منها، كقراءة قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾. [البقرة: ١١٦]. في البقرة بغير (واو)، وقوله: ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. [آل عمران: ١٣٣]. بحذف (الواو) أيضاً، وقوله

= وإسناده صحيح.

(١) «النشر في القراءات العشر»: (١/ ٩).

(٢) انظر تفصيلاً واسعاً في «منجد المقرئين»: (ص/ ٨٠ ـ وما بعدها)، و«النشر» لابن الجزري: (١/ ١٢ ـ ١٣).

تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ﴾. [التوبة: ١٠٠]. بزيادة حرف الجر (من).

ومعنى موافقتها أحد المصاحف ـ ولو احتمالاً ـ: أن توافق الرسم ولو تقديراً، نحو قراءة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾. [الفاتحة: ٦]. ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ۝٢٢﴾. [الغاشية: ٢٢]. بالصاد المبدلة عن السين التي هي الأصل لتكون القراءة بالسين، وإن خالفت الرسم من وجه، فقد وافقت الأصل للرسم؛ ولذلك وقع الخلاف في قراءة (بصطة) في قوله تعالى: ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗ﴾. [الأعراف: ٦٩]. هل تقرأ بالسين أم بالصاد؟ ولو كتبت بالسين لعدت قراءة الصاد مخالفة لرسم القرآن، ولم يقع الخلاف في قراءة (بسطة) في قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾. [البقرة: ٢٤٧]. لأنها كتبت بالسين، وهي الأصل؛ ولابد للقراءة المعتبرة مع صحة سندها أن توافق اللغة العربية ولو بوجه من الوجوه. يقول ابن الجزري: لابد من موافقتها وجهاً من وجوه النحو، سواء كان أفصح، أم فصيحاً مجمعاً عليه، أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله إذا كانت القراءة مما شاع وذاع، وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح؛ إذ هو الأصل الأعظم والركن الأقوم، وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية. فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم، ولم يُعتبر إنكارهم كخفض ﴿والأرحام﴾ في قوله

تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ ﴾. [النساء: ١]. وإسكان الهمزة التي بعد السين وصلاً ووقفاً في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئۡ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ ﴾. [فاطر: ٤٣].

وعلى ذلك يكون ما رُوي في قراءات القرآن ثلاثةُ أقسام لكل واحد منها حكم:

الأول: ما اجتمع فيه ثلاثةُ شروط، وهي: صحة السند، وموافقة العربية، وخطُّ المصحف، فيقطع بقرآنيته وكفر منكره.

الثاني: ما صح سنده ووافق العربية وخالف خط المصحف العثماني، فلا يُقرأُ به، وإنما يعمل به لأنه سنة وليس بقرآن، نحو: قراءة ابن مسعود (فصيام ثلاثة أيام متتابعات)، فهل يشترط التتابع في الصيام في كفارة اليمين أم لا؟ قولان للعلماء، ولا تجوز القراءة بما روي عن ابن مسعود؛ لأنها مخالفة لما في المصحف، ولم يقطع بقرآنيتها، فلا يجوز أن ندخل في كتاب الله ما ليس منه.

الثالث: ما لم يصح سنده، فهذا لا يقبل، ولو وافق العربية وخطَّ المصحف مثل قراءة من قرأ قوله تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةً ﴾. [يونس: ٩٢]. قرأ ﴿ننحيك﴾ بالحاء المهملة، وفتح اللام من ﴿خَلَفَكُمۡ﴾. [يس: ٤٥]. وكالقراءة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾. [فاطر: ٢٨]. برفع اسم

الجلالة، ونصب ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1].

أما القراءة الشاذَّة فهي ما وافقت العربية وصحَّ سندها، لكن شذَّت عن رسم المصحف المجمَعِ عليه، فهذه لا تجوز القراءة بها لا في الصلاة ولا في غيرها.

وقد سُئل ابن الصلاح ـ رحمه الله تعالى ـ: هل تجوز القراءة بالشاذِّ؟ أو هل يجوز أن يَقرأ القارىءُ عشراً، كل آية بقراءةٍ ورواية؟ فقال: «يُشترط أن يكون المقروء به قد تواتر نقله عن رسول الله ﷺ قرآناً، واستفاض نقله كذلك، وتلقته الأمة بالقبول كهذه القراءات السبع؛ لأن المعتبر في ذلك اليقين والقطع على ما تقرَّر وتمهَّد في الأصول، فما لم يوجد فيه ذلك كما عدا السبع، أو كما عدا العشر فممنوع من القراءة به مَنعُ تحريم لا منع كراهة في الصلاة وخارج الصلاة، وممنوع منه مَنْ عرف المصادر والمعاني، ومن لم يعرف ذلك واجب على من قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يقوم بواجب ذلك، وإنما نقلها من نقلها من العلماء لفوائد فيها تتعلَّقُ بعلم العربية لا للقراءة بها. هذا طريق من استقام سبيله. ثم قال والقراءة الشاذة ما نُقِل قرآناً من غير تواتر، واستفاضة مُتلقَّاة بالقبول من الأمة كما اشتمل عليه [المحتسب] لابن جنِّي وغيره. وأما القراءة بالمعنى من

(١) انظر: «النشر في القراءات العشر»: (١/ ١٢ ـ وما بعدها)، و«اخلاتف المفسرين» للفنيسان: (ص/ ٦١).

غير أن ينقل قرآناً فليس ذلك من القراءات الشاذَّة أصلاً، والمجترىء على ذلك مجترىءٌ على عظيمٍ، وضالٌّ ضلالاً بعيداً فيعزَّر ويُمنع بالحبس ونحوه ولا يخلّى ذا ضلالة، ولا يحل للمتمكن من ذلك إمهاله ويجب مَنْعُ القارىء بالشاذِّ وتأثيمه بعد تعريفه، وإن لم يمتنع فعليه التعزير بشرطه. وإذا شَرَع القارىءُ بقراءة ينبغي أن لا يزال يقرأ بها ما بقي للكلام تعلقٌ بما ابتدأ به، وما خالف ذلك ففيه جائز وممتنع، وعُذْرُ المرض مانعٌ من بيانه بحقِّه، والعلم عند الله تعالى»[١].

ومن **التحقيقات المفيدة قول أبي شامة**: فلا ينبغي أن يغتر بكل قراءة تُعزَى إلى أحد السبعة، ويُطلقُ عليها لفظ الصحة، وأنَّها أنزلت هكذا، إلاَّ إذا دخلت في ذلك الضابط، فإنَّ القراءة المنسوبة إلى كل قارىء من السبعة وغيرهم، منقسمةٌ إلى المجمع عليه والشاذّ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه في قراءتهم تركن النفسُ إلى ما نُقِل عنهم فوق ما يُنقَل عن غيرهم. اهـ[٢].

وقد يقرأ بعض الناس أنَّ هناك خِلافاً في القراءة، ووجه ذلك أنَّ الخلاف في القراءة إما أن يكون منسوباً إلى الإمام،

---

(١) «تقريب النشر» لابن الجزري: (ص/ ٢٧)، و«منجد المقرئين»: (ص/ ٨٤ ـ وما بعدها).

(٢) «النشر في القراءات العشر»: (١/ ٩)، و«منجد المقرئين»: (ص/ ٢٣١ ـ وما بعدها).

أو إلى الراوي عن الإمام، أو إلى الآخذ عن الراوي. فإن كان الخلاف منسوباً لإمام من الأئمة ممَّا أجمع عليه الرواةُ، فهو قراءةٌ، وإن كان منسوباً للراوي عن الإمام، فهو روايةٌ، وكل ما نُسب للآخذ عن الراوي وإن سفل، فهو طريق. وهذا هو الخلاف الواجب، فهو عين القراءات والروايات والطُّرق، بمعنى أنَّ القارىء مُلزَمٌ بالإتيان بجميعها، فلو أخلَّ بشيء منها عُدّ ذلك نقصاً في روايته. وأماالخلاف الجائز، فهو خِلاف الأوجه التي على سبيل التخيير والإباحة، كأوجه البسملة، وأوجه الوقف على عارض السكون، فالقارىء مخير في الإتيان بأي وجه منها، غير ملزم بالإتيان بها كلها، فلو أتى بوجهٍ واحدٍ منها أجزأه، ولا يعتبر ذلك تقصيراً منه، ولا نقصاً في روايته. وهذه الأوجه الاختيارية لا يقال لها قراءات، ولا روايات، ولا طرق، بل يقال لها أوجه فقط[١].

وقد اختلف الفقهاء في المتواتر من القراءات، فذهب الحنفية في الصحيح، والمالكية على المشهور، والحنابلة، إلى أن القراءات المتواترة هي قراءات قراء الإسلام المشهورين العشرة. قال ابن عابدين: القرآن الذي تجوز به الصلاة بالاتفاق هو المضبوط في مصاحف الأئمة التي بعث بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار، وهو الذي أجمع عليه

---

(١) «إتحاف فضلاء البشر»: (ص/ ١٧).

الأئمة العشرة، وهذا هو المتواتر جملة وتفصيلاً، فما فوق السبعة إلى العشرة غير شاذّ، وإنما الشاذ ما وراء العشرة، وهو الصحيح[1]، والقراءات ثلاثة أصناف: قراءات متفق على تواترها، وقراءات مختلف في تواترها، وقراءات شاذة.

فأصحاب القراءات المتفق على تواترها سبعة، وهم:

١ ـ «**نافع المدني**»: أبو رديم نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم الليثي (١٦٩هـ). وقد نقل رواياته: «قالون» واسمه: عيسى بن مينا المدني (٢٢٠هـ)، و«ورش» واسمه: عثمان بن سعيد المصري (١٩٧هـ).

٢ ـ «**ابن كثير**»: عبدالله بن كثير المكي (١٢٠هـ). وقد نقل رواياته: «البزّي»: واسمه: أحمد بن محمد بن أبي بزة (٢٥٠هـ)، و«قنبل» واسمه: محمد بن عبدالرحمن المخزومي (٢٩١هـ).

٣ ـ «**أبو عمرو البصري**»: زبان بن العلاء المازني (١٥٤هـ). وقد نقل رواياته «الدوري» واسمه: حفص بن عمر بن عبدالعزيز الدوري (٢٤٦هـ)، و«السوسي» واسمه: صالح بن زياد السوسي (٢٦١هـ).

٤ ـ «**ابن عامر الشامي**»: عبدالله بن عامر اليحصبي (١١٨هـ). وقد نقل رواياته «هشام» واسمه: هشام بن عمار بن نصير (٢٤٥هـ)، و«ابن ذكوان» واسمه:

---

(١) «النشر في القراءات العشر»: (١/ ٥٤).

عبدالله بن أحمد بن بشير القرشي (٢٤٢هـ).

٥ ـ **«عاصم الكوفي»**: عاصم بن أبي النجود الأسدي (١٢٧هـ). وقد نقل رواياته «شعبة» واسمه: شعبة بن عياش بن سالم الكوفي (١٩٣هـ)، و«حفص» واسمه: حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز (١٨٠هـ).

٦ ـ **«حمزة الكوفي»**: حمزة بن حبيب بن عمارة الزيّات (١٥٦هـ). وقد نقل رواياته «خلف» واسمه: خلف بن هشام البزّار (٢٢٩هـ)، و«خلّاد» واسمه: خلاد بن خالد الصيرفي (٢٢٠هـ).

٧ ـ **«الكسائي الكوفي»**: علي بن حمزة النحوي (١٨٩هـ). وقد نقل رواياته «أبو الحارث» واسمه: الليث بن خالد البغدادي (٢٤٠هـ)، و«أبو حفص الدوري» واسمه: حفص بن عمر بن عبدالعزيز الدوري (٢٤٦هـ)[١] رحم الله الجميع.

قال مُقيِّده ـ عفا الله تعالى عنه ـ تُعدّ القراءات من أهمّ أوجه تفسير القرآن بالقرآن، فعن مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: «لو كنت قرأتُ قراءة ابن مسعود قبل أن أسأل ابن عباس، ما احتجت أن أسأله عن كثير مما سألتُه

(١) «النشر في القراءات العشر»: (١/ ٥٤ ـ بتصرف يسير) وفيه تقييد أسماء أصحاب القراءات المختلف في تواترها وكذلك أسماء أصحاب القراءات الشاذة، فليُراجع.

عنهُ»[1].

والقراءات التي يُحمَلُ بعضها على بعض، أو يُفسِّر بعضها بعضاً على قسمين:

الأول: الاختلاف في اللفظ مع الاتفاق في المعنى.

الثاني: اشتمالها على زيادة تُوضِّح القراءة الأخرى.

فمن أمثلة القسم الأول قول الله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾. [الإسراء: ٩٣]. فقد روى ابن كثير بسنده عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنه: «الذهب»، ثم قال: «وكذلك هو في قراءة عبدالله بن مسعود: أو يكون لك بيتٌ من ذهب»[2].

ومن أمثلة القسم الثاني: تفسير الأخ والأخت في قول الله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾. [النساء: ١٢]. بالإخوة لأم حَمْلاً على القراءة الأخرى، كما قال ابن كثير: «أي من أمٍّ كما في قراءة بعض السلف منهم سعد بن أبي وقاص»[3].

ومن يطالع في تفاسير السلف الصالح ـ رحمهم الله تعالى ـ فإنَّه ينتفع بما يُوردونه من تقريرات وتوجيهات القراءات لإيضاح المعاني والمقاصد التي تشتمل عليها ألفاظها. ففي قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا

---

(١) «الترمذي»: (رقم الأثر: ٢/٢٩٥٢).

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: (ص/ ١١٣٩ ـ ط ابن حزم).

(٣) «تفسير القرآن العظيم»: (ص/ ٤٤٩ ـ ط ابن حزم).

﴿لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾. [الأعراف: ١٠].

فقد قرأ جميع القُرَّاء «معايش» بلا همز، إلا «عبدالرحمن بن هرمز الأعرج» فإنَّه هَمَزَهَا، والصواب الذي عليه الأكثرون بلا هَمْز[١].

وفي قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. [البقرة: ٣٠]. قُرِىءَ في الشاذّ: «إني جاعل في الأرض خليقة»!![٢].

وفي قول الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾. [البقرة: ١٢٦].

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: «قرأ بعضهم: (ومن كفر فأمْتِعْه قليلاً) جعله من تمام دعاء إبراهيم، وهي قراءة شاذَّة، مخالفة لقراءة السبعة وتركيب السياق يأبى معناها، فإن الضمير في «قال» راجع إلى الله تعالى في قراءة الجمهور، والسِّياق يقتضيه، وعلى هذه القراءة الشاذة يكون الضمير في «قال» عائداً على إبراهيم، وهذا خِلاف نظام الكلام، والله سبحانه وتعالى هو العلاَّم»[٣].

وفي قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾. [الكهف: ٣٤]. وقوله سبحانه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾. [الكهف: ٤٢]. قال مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ: الثُّمُر ـ بضم الثاء والميم ـ الذَّهب والفضة، وهي

(١) «تفسير القرآن العظيم»: (ص/ ٧٤٦).
(٢) «تفسير القرآن العظيم»: (ص/ ١٠٩).
(٣) «تفسير القرآن العظيم»: (ص/ ٢٠٣).

قراءةُ أهل مكة[1].

سابعاً: الاستدلال لكلِّ حُكمٍ شرعيّ في القرآن بدليلٍ من السُّنَّةِ النبوية الصحيحة:

إنَّ مما يُساعدُ على فهم القرآن المجيد؛ العنايةُ بالآثار المحمدية الواردة في شأن الأحكام الفقهيـة، إذ السنة ما أثر عن النبي ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ، أو صفةٍ خَلْقيَّة أو خُلُقيَّة، أو سيرةٍ، سواء أكان ذلك قبل البعثة كتحَنُّثه في غار حِراء أم بعدها[2].

والآثار المحمدية الواردة في شأن ا لأحكام الفقهية قد تُستفاد من دواوين الحديث أو الفقه أو لتفسير أو السيرة، ويُشترط لذلك أنْ تكون مصادر أصلية موثَّقة، يغلبُ فيها الصحيحُ غَيْرَهُ.

واقتفاء هذا الأثر ولزوم هذه الجادَّة يُو ِثُ العلم والعمل، ويُكْسِبُ التقوى التي قال الله في شأنها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾. [الأنفال: ٢٩].

ومن الأمثلة القويَّة والمليحة في هذا ا ـمِضْمار ما رواه أبو موسى الأشعري؛ أنَّه استأذن على عمر بـ ن الخطاب ـ رضي

(١) «تفسير الإمام مجاهد»: (ص/ ٢٩٤)، و«تفسير الطبـ ـي»: (١٥/ ٢٤٥).

(٢) «السنة قبل التدوين» للخطيب: (ص/ ١٦).

الله عنه ـ فلم يُؤذن له، وكأنَّه كان مشغولاً، فرجع أبو موسى، فَفَرِغَ عمر فقال: ألم أسمع صوت عبدالله بن قيس، ائذنوا له، قيل: قد رجع، فدعاه، فقال: كُنَّا نؤمر بذلك، فقال: تأتيني على ذلك بالبيِّنة، فانطلق إلى مجلس الأنصار فسألهم، فقالوا: لا يشهد لك على هذا إلا أصغرنا أبو سعيد الخدري، فذهَبَ بأبي سعيد الخدري، فقال عمر: أخفِيَ هذا عليَّ من أمر رسول الله ﷺ؟! ألهاني الصَّفْقُ بالأسواق(١).

فهذا الأثر وشاهده، يصلح أن يُستدلَّ بما على مشروعية «السلام»؛ لاسيما عند تدبُّر قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾. [النور: ٢٧].

وأوَّل ما يقرأ المسلم في المصحف ـ إذا أشرعه ـ: البسملة «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، وهي قطعاً بعضُ آيةٍ من كتاب الله تعالى(٢)، وعلى القول الراجح ليست آية في صدر سورة الفاتحة، ولا في صدر غيرها من سور القرآن المجيد(٣).

---

(١) «البخاري»: (رقم الأثر: ٢٦٢ ـ وانظر الشاهد من الحديث النبوي: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع» (رقم الحديث: ٦٢٤٥) في المصدر نفسه.

(٢) في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾. [النمل: ٣٠].

(٣) انظر تفصيل هذه المسألة في «كشاف القناع» (١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦)، و«حاشية =

والأمثلة الآتية تُوضِّحُ كيف يستفيد المسلم من طريقة الاستدلال بالآثار المحمدية لفهم الأحكام الفقهية التي تضمَّنتها الآيات القرآنية:

(أ) ● الآية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝﴾. [النمل: ٣٠].

● الحكم: التسمية لكل أمر ذي بال.

● الحديث: عن رجل، كنتُ رديف النبي ﷺ، فعثرت دابته، فقلت: تعس الشيطان. فقال: «**لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت، ويقول: بقوتي، ولكن قل: بسم الله، فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب**»[1].

(ب) ● الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾. [المائدة: ١].

● الحكم: وجوب الوفاء بالعقود والشروط الشرعية.

● الحديث: «**من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله تعالى فهو باطل، وإن اشترط مئة شرط، شرط الله أحق وأوثق**»[2].

(جـ) ● الآية: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾. [البقرة: ٢٢٨]. وقال سبحانه: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ

= ابن عابدين»: (١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠)، و«الموسوعة الفقهية»: (٨/ ٨٤).

(١) «أبو داود»: (رقم الحديث: ٤١٦٨) وإسناده صحيح.

(٢) «البخاري»: (رقم الحديث: ٢٥٦١).

بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ﴾. [البقرة: ٢٢٩]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾. [البقرة: ٢٣١]. وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾. [الطلاق: ٢].

● الحكم: شرع للزوج إعادة زوجته المطلقة طلاقاً غير بائن إلى ما كانت عليه قبل الطلاق، بغير عقد زواج.

● الحديث: ما ثبت أن ابن عمر رضي الله عنهما حين طلَّق امرأته، قال النبي ﷺ: «**مُرْه فليراجعها**»[1].

(د) ● **الآية**: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾. [يوسف: ٧٢].

● الحكم: جواز الجعالة، هي: جعل مال معلوم لمن يعمل لإنسان عملاً مباحاً، ولو مجهولاً.

● الحديث: ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه في رقية اللديغ ـ على قطيع من الغنم ـ بالفاتحة. وقد سأل الصحابةُ رسول الله ﷺ عن ذلك، فضحك وقال: «**إنَّها رقية، خُذُوها، واضربوا لي فيها بسهم**»[2].

(هـ) ● **الآية**: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾. [النور: ٣١].

● الحكم: لا يجوز للمرأة رفع صوتها بالكلام.

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ٤٩٠٨)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ١٤٧١).

(٢) «البخاري»: (رقم الحديث: ٥٧٣٦)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ٢٢٠).

● الحديث: ما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**التسبيح للرجال، والتصفيق للنساء**»[1].

والأكمل لكل مسلم أنْ يُعوِّد نفسه على استحضار الآثار المحمدية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ عند تدبُّر الآيات القرآنية. وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾. [النحل: ٤٤]. ولا يخفى على كل ذي بصيرةٍ أنَّ بيان القرآن وتفسيره لا يكون إلا بالوحيين: الكتاب والسنة. وقد تقدَّم ما يدلُّ على هذا في الصفحات السابقة.

ومن الأفكار العلمية النافعة في هذا الباب، أن يجتمع ثلاثة أو أكثر على كتاب الله تعالى، فيتفقوا على استخراج أحاديث أحكام سورة الفاتحة مثلاً، أو سورة النور، أو سورة الأحزاب، ويضربون لذلك أجلاً لا يجوز التأخر عنه أو تجاوزه. فإذا نشطت هِمَمُهُمْ قليلاً؛ تناولوا أحاديث أحكام أجزاء القرآن المجيد، حتى يُتمُّوا كتاب الله عِلماً وعملاً وإفادة. فهذه الجادَّةُ إذا نَشَطَ لها الإخوةُ والأخواتُ، مع استحضار الإخلاص والاحتساب أوْرثتْ عِلماً نافعاً، وشجَّعتْ النفوس على مدارسة كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار،

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ١٢٠٤)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ٤٢١).

وبالله التوفيق[1].

---

(١) ممّا يعضد هذه الجادَّة ويُقوِّيها؛ تمحيص الروايات التفسيرية ونخلها بميزان الشرع القويم، ونبش دسائس الرواة وتخليطهم في سائر المرويات. وهذا الفقه لا يكون إلا بطول النَّظر وإدمانِ الفِكر في التفاسير والدواوين الشرعية المتعدِّدة. ومن أظهر الأمثلة في هذا الباب ما يُردِّده كثير من الباحثين والمصنفين عند قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٧﴾ [الأحقاف: ١٧]، فيزعمون أنها نزلت في «عبدالرحمن بن أبي بكر» رضي الله عنهما! ويوردون على ذلك ما رواه البخاري أن «مروان بن الحكم كان على الحجاز، استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبدالرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: «والذي قال لوالديه...»، فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينـا شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري» اهـ. وقد قال الحافظ ابن حجر: «...لكن نفي عائشة أن تكون نزلت في عبدالرحمن وآل بيته أصح إسناداً وأولى بالقبول..». وقال العلامة الشنقيطي: «التحقيق إن شاءالله أن (الذي) في قوله: «والذي قال لوالديه» بمعنى الذين، وأن الآية عامة في كل عاق لوالديه مكذب بالبعث، والدليل من القرآن على أن «الذي» بمعنى الذين، وأن المراد به العموم، أن «الذي» في قوله: «والذي قال لوالديه» مبتدأ خبره قوله تعالى: «أولئك الذين حق عليهم القول». وبهذا الدليل القرآني تعلم أن قول من قال في هذه الآية الكريمة إنها نازلة في عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ليس بصحيح، كما جزمت عائشة رضي الله عنها ببطلانه». انظر: «فتح الباري»: (٢/ ٢١١٦ ـ ط بيت الأفكار الدولية)، و«أضواء البيان»: (٧/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨). وانظر تحقيقات متينة على آيات وسور مبينة في: «عمدة التفسير»: (١/ ٤٠، ٧١، ١٢٠ و٢/ ٥٠، ٢١٠)، و«تفسير =

ثالثاً: المطالب العمليّة:

المقصود بالمطالب العملية: القيام بالأسباب والوسائل المشروعة التي يمكن من خلالها تنفيذ أمر الله ونهيه، واتِّباع شرعه، وفهم كتابه على الوجه الذي أراده الله من عباده.

والمطالب العملية هي المحرِّك الرئيس الذي يدفع النفس إلى التدبُّر وفقه نصوص الكتاب العزيز، والمطالب العملية جزء من الإيمان ـ كما قدَّمنا ـ لا يصح فصلها عنه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾. [البقرة: ١٤٣]. «وما من شك أن العمل بالعلم يُقرِّره في النفس أبلغ تقرير، وينقشه في صحيفة الفِكر أثبت نقش، على نحو ما هو معروف في فنِّ التربية وعلم النفس، مِنْ أنَّ التطبيق يُؤيِّد المعارف، والأمثلة تُقيِّد القواعد، ولا تطبيق أبلغ من العمل، ولا مثال أمثل من الاتِّباع، خصوصاً المعارف الدينية، فإنَّها تزكو بتنفيذها،

= على آيات وسور مبينة في: «عمدة التفسير»: (١/ ٤٠، ٧١، ١٢٠ و٢/ ٥٠، ٢١٠)، و«تفسير القرطبي»: (١٩/ ٨٥)، و«تفسير أبي السعود»: (٥/ ١٧١)، و«تفسير القرآن العظيم»: (ص/ ٣١٤ ـ ط ابن حزم)، و«الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة» للزركشي: (ص/ ١٤٠ ـ وما بعدها)، و«نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق» للألباني، و«تفسير الجلالين ـ من سورة غافر إلى سورة الناس» تعليق وتصويب العلامة عبدالرزاق عفيفي، و«آيات مظلومة بين جهل المسلمين وحقد المستشرقين» للقريشي، و«الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير»: لأبي شهبة: (ص/ ١٥٩ ـ وما بعدها).

﴿ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾. [الأنفال: ٢٩]. أي: هداية ونوراً تُفرِّقون به بين الحق والباطل، وبين الرشد والغي. كما جاء في بعض وجوه التفاسير. وذلك أنَّ المجاهدة تُؤدِّي إلى المشاهدة، والعناية بطهارة القلوب وتزكية النفوس تُفجِّر الحكمة في قلب العبد»[١].

وقد أوصى الله عباده بالربانية وهي: تعليم الناس هدى الله وأحكامه مع مراعاة تقديم الجزئيات على الكليات، والفروع على الأصول، والمقدمات على المقاصد، حتى يتهيأ الناسُ للعمل والفقه، فيُحقِّقوا العبودية لله تعالى، ويكونوا حُكماء عاملين، يخشون الله في السر والعلن. كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾. [آل عمران: ٧٩][٢].

(١) «مناهل العِرْفان»: (١/ ٣١٠).

(٢) «لطيفة»: في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضمَّني رسول الله ﷺ وقال: «اللهم علِّمه الكتاب». وفي رواية: «اللهم علِّمه الحكمة» أخرجه البخاري. قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ: «المراد بالتعليم: ما هو أعلم من حفظه والتفهم فيه»، و«كذلك الحكمة اختلف الشراح في المراد بها هنا، فقيل: القرآن، وقيل: العمل به، وقيل: السنة، وقيل: الإصابة في القول، وقيل: الخشية، وقيل: الفهم عن الله، وقيل: العقل، وقيل: ما يشهد العقل بصحته، وقيل: نور بينه وبين الإلهام والوسواس، وقيل: سرعة الجواب مع الإصابة». وقال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: «هي الفهم والعلم والتعبير». انظر: «فتح الباري»: (١/ ٣٢٧ و٢/ ٣٧٥٨)، و«تفسير القرآن العظيم»: =

● طرق العمل بالتنزيل:

ثمَّت ثلاث طرق للعمل بالقرآن المجيد، يحسن بكل مسلمٍ أن يتعلَّمها ويفقهها؛ حتى ينتفع الانتفاع الكامل بكتاب الله تعالى. والطرق الثلاث هي:

أ ـ العمل بطريقة الحصة القرآنية[1].

ب ـ العمل بطريقة مقاصد السور.

جـ ـ العمل بطريقة فقه النصوص.

* * *

● العمل بطريقة الحصة القرآنية:

المقصود بهذه الطريقة: أن يعمد المسلم إلى أخذ قطعة من التنزيل العزيز للانتفاع بها علماً وعملاً. فيعمد إلى خمس أو عشر آيات كريمة، يختارها هو أو يختارها له شيخه على ضوء برنامج يوميّ لا ينقطع. وقد ثبت عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «كان الرجل مِنَّا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهنَّ حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن»[2].

وفي رواية: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنَّهم كانوا

= (ص/ ٣٣٠).

(١) الحصة القرآنية اليوم يمكن اعتمادها عن طريق تعلُّم وجه واحد من المصحف الشريف، وكل وجه في المصحف ـ في الغالب ـ لا يتجاوز عشر آيات، ولا يقلُّ عن خمس آيات، والله الموفق للخيرات.

(٢) «تفسير الطبري»: (١/ ٣٥) وإسناده حسن.

يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلَّموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلَّمنا القرآن والعمل جميعاً»[1].

وعن عطاء بن السائب أن أبا عبدالرحمن السلمي قال: «أخذنا القرآن عن قومٍ أخبرونا أنهم إذا تعلَّموا عشر آيات، لم يجاوزوهن إلى العشرِ الأخرِ، حتى يعملوا ما فيهن، فكنَّا نتعلَّمُ القرآنَ والعمل به»[2].

وقال أبو العالية: «تعلَّموا القرآن خمس آيات، فإنه أحفظ عليكم، وجبريل كان ينزل به خمس آيات، خمس آيات»[3].

---

(١) «تفسير الطبري»: (١/ ٣٦) وقائلها «عبدالله بن حبيب الكوفي» (٧٤هـ)، وهو من أولاد الصحابة رضي الله عنهم جميعاً.

(٢) «طبقات ابن سعد»: (٦/ ١٧٢)، و«سير أعلام النبلاء»: (٤/ ٢٦٩). وأبو عبدالرحمن السلمي، كنيته «عبدالله بن حبيب» ـ رحمه الله تعالى. وقد روى أصحاب التراجم أن أبا عبدالرحمن السلمي كان يعلم أصحابه خمس آيات، خمس آيات. انظر: المصدرين السابقين.

(٣) «الحلية» لأبي نعيم: (٢/ ٢١٩) وإسناده صحيح، و«سير أعلام النبلاء»: (٤/ ٢١١)، و«شعب الإيمان» للبيهقي: (٤/ ٥١٣).

وقد روى ابن عساكر عن أبي نضرة أنه قال: كان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يُعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشي، ويُخبر أنَّ جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات.

قلت: وثبت عن عمر رضي الله عنه أنه قال: تعلَّموا القرآن خمساً خمساً. انظر: «الإتقان» للسيوطي: (١/ ٥٧)، و«شعب الإيمان»: (٤/ ٥١٢). وإسناده صحيح.

وهذه الطريقة لا يُمكنُ الانتفاعُ بها إلا بتوفيق الله تعالى، ثم بالاسترشاد **بالتفسير التحليلي** الذي يعمل على حلّ الألفاظ الغريبة وبيان سبب نزول الآيات وتوجيه الإعراب والقراءات[1].

فيلزم الإخوة والأخوات في المساجد والبيوت والوحدات التعليمية العملُ على فهم كلام الله تعالى والاهتداء بهديه، وذلك بالاستعانة بالله أولاً ثمَّ بتلقُّف التفاسير النافعة المضبوطة بالفهم الصحيح والفقه الرجيح، على ضوء عقيدة

---

(١) ومن التفاسير النافعة: التفسير الموضوعي، والتفسير الإجمالي، والتفسير المقارن. ويقصد بالتفسير الموضوعي: جَمْعُ الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد، مشتركة في الهدف، وترتيبها على حسب النزول، ثم تناولها بالشرح والتفصيل، وبيان حكمة الشارع في أحكامه وهداياته، مع الرد على شبه الضالين والمبطلين. أما التفسير الإجمالي: فهو تفسير القرآن على حسب ترتيب تلاوته، والتعرض لآياته آية آية في شرح مبسط وبألفاظ واضحة وميسرة، مع الاستشهاد بالأحاديث النبوية والآثار السلفية والحوادث التأريخية. والتفسير المقارن: موازنة أقوال العلماء في مجموعة من الآيات القرآنية، سواءً كانت في الأحكام أو القصص أو العقائد أو الآداب، مع الاستشهاد بالمعقول والمنقول وتأصيل المذاهب المتعددة بالمنهج النافع الصحيح.

انظر: «مباحث في التفسير الموضوعي» لمصطفى مسلم، و«دراسات في التفسير الموضوعي» للألمعي: (ص/ ١٨ ـ وما بعدها).

و«المدخل إلى التفسير الموضوعي» لعبدالستار سعيد: (ص/ ٩ ـ ١٢)، و«التفسير الموضوعي» لمحمد القاسم: (ص/ ١٥ ـ ١٧).

أهل السنة والجماعة.

ومما يُكمِّل الانتفاع بهذه الطريقة: الاستعانة بالمصوَّرات التاريخية والجغرافية للدلالة على مواقع البلاد التي أصابتها سنن الله الكونية والشرعية، ولمعرفة تفاصيل رحلات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام[1].

ومن خلال الهدايات القرآنية ومعاني الآيات الكريمة التي تحضُّ على الطاعات وتزجر عن الموبقات يسهل العمل ويتنور الفؤاد بنور الله تعالى. وفي قول الله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾. [البقرة: ٢٦٦]. قال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: «هذا مَثَلٌ، قلَّ والله من يعقله من الناس: شيخ كبير ضَعُفَ جسمُهُ وكَثُرَ صبيانُهُ أفقرَ ما كان إلى جَنّته، وإنَّ أحدكم والله أفقَر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدُّنيا».

«فلو فكَّر العاقل في هذا المثل وجعله قِبلة قلبه لكفاه وشَفاه، فكذلك العبد إذا عمل بطاعة الله ثم أتبعها بما يبطلها ويحرقها عن معاصي الله؛ كانت كالإعصار ذي النار المحرق

---

(١) وقد خُدِمَ هذا الجانب في كتابين هما: «أطلس القرآن» لأبي خليل، و«أطلس تاريخ الأنبياء والرسل» للمغلوث.

للجنة التي غرسها بطاعته وعمله الصالح. فلو تصوَّر العاملُ بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره وتأمله كما ينبغي لما سولت له نفسه والله إحراق أعماله الصالحة وإضاعتها، ولكن لابد أن يغيب عنه علمه عند المعصية، ولهذا استحق اسم الجهل، فكل من عصى الله فهو جاهل»[1].

● **العمل بطريقة مقاصد السور**[2]:

المقصود بهذه الطريقة: أن يتتبَّع المسلم الموضوعات التي تدور عليها آيات سور القرآن المجيد، كل سورة على حِدة، فيبدأ مثلاً بسورة الفاتحة، ثم البقرة، ثم آل عمران، حتى يستوعب سور القرآن كُله، والأصل في ذلك: تنبيه العلماء الراسخين على موضوعات آيات سور القرآن العظيم، مع الحذر من تكلُّف بعض المفسرين في علم مقاصد السور.

وقد نبّه العلماء الثقاة على أن جميع آيات القرآن العظيم ترتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوعات سورها، بدلائل وقرائن يهتدي إليها الراسخون ومَنْ فتح الله عليه بفتحٍ من عنده، وهو الفتَّاح العليم. فسورة الفاتحة ـ مثلاً ـ جمعت مقاصد القرآن العظيم كله، ولذا سُمِّيت: «أم القرآن»[3]، ففيها الثناء على الله

---

(١) «بدائع التفسير»: (١/ ٤٢٥ ـ ٤٢٧).

(٢) أشرتُ فيما مضى من الكتاب (ص/ ٦٩) إلى مقاصد القرآن الرئيسة.

(٣) «البخاري»: (رقم الحديث: ٤٧٠٤).

تعالى، وفيها التوحيد بنوعيه: توحيد الطلب والقصد، وتوحيد المعرفة والإثبات، وفيها بيان الهداية، وهي معرفة الحق والعمل به، وفيها الإشارة إلى القوتين: العلمية النظرية، والعملية الإرادية. وقد تضمنت هذه السورة أيضاً: إثبات المعاد، وجزاء العباد، وإثبات النبوات، والتنويه بفضل الصحابة وأتباعهم. وتضمنت أيضاً الوسيلتين وهما: التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده. وقد اشتملت الفاتحة على الشفاءين: شفاء القلوب، وشفاء الأبدان. وشملت أيضاً الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل، والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة. ففيها الرد على الجهمية المعطلة، وفيها الرد على الجبرية، وفيها الرد على الفلاسفة والملاحدة، وفيها الرد على الرافضة، والرد على القائلين بقدم العالم، وفيها الرد على اليهود والنصارى. والله أعلم[1].

(١) انظر للاستزادة: «شفاء العليل» لابن القيم: (ص/ ٥٢ ـ ٥٣)، و«الفوائد»: (ص/ ٢١ ـ ٢٢)، و«مدارج السالكين»: (٣/ ٥١٠ ـ ٥١١)، و«الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة»: (٤/ ١٢٢٢ ـ ١٢٢٥)، و«طريق الهجرتين وباب السعادتين»: (ص/ ١١٦ ـ وما بعدها)، و«مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»، و«أضواء البيان» للشنقيطي: (١/ ٤٢ ـ ٤٤)، و«أحكام القرآن» لابن العربي: (١/ ٥ ـ ٨)، و«التفسير الكبير»: (١/ ١٥٦ ـ وما بعدها)، و«تفسير ابن سعدي»: (ص/ ٢٢ ـ ٢٣).

وعند التأمل فإنَّ سورة البقرة موضوعها: التذكير بالضروريات الخمس، وسورة آل عمران موضوعها: بيان الحوار مع أهل الكتاب، وسورة النساء موضوعها: أحكام المواريث والنساء، وكشف أحوال المنافقين. وسورة المائدة موضوعها: التنبيه على أحكام العقود والحلال والحرام.

ولو تأمَّل مُتَأَمِّلٌ في سورة الإخلاص لعلم أنَّها تضمنت التوحيد الفعلي الطلبي، وهو توحيد العبادة؛ توحيد الإرادة والقصد. وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال: «**قل هو الله أحد، تعدل ثلث القرآن**»[(١)]. ومعلوم أن معاني القرآن العظيم لا تخرج عن ثلاث: الأحكام، والأخبار، والتوحيد. وسورة الإخلاص تضمنت المعنى الثالث، فكانت ثلثاً بهذا الاعتبار[(٢)]؛ والله أعلم.

---

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ٥٠١٣).

(٢) «فتح الباري»: (٢/ ٢٢١٥). وقد ناقش الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ من قال: إن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، لأن قارئها يحصل على أجر من قرأ ثلث القرآن!. وقد قال بعض أهل العلم: إن القرآن خبر وإنشاء، والإنشاء أمر ونهي وإباحة، والخبر خبر عن الخالق، وخبر عن خلقه، فأخلصت سورة الإخلاص الخبر عن الله وخلصت قارئها من الشرك الاعتقادي. وقال أبو عبدالله الأنصاري القرطبي: اشتملت سورة الإخلاص على معرفة الذات المقدسة؛ فكانت بالنسبة إلى تمام المعرفة بصفات الذات وصفات الفعل ثلثاً. انظر: «تفسير القرطبي»: (١٠/ ١٦٩)، و«جواهر البيان في تناسب سور القرآن للغماري: (ص/ ١٤٨) وفيه: «القرآن يشتمل على =

ومما يُعين المسلم على فهم مقاصد السور: مُطالعة تصانيف العلماء في علم المناسبات بين سور القرآن المجيد، أو بين الآيات في السورة الواحدة. والمناسبات علم لطيف تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال لما اقتضاه من الحال. وقد قال البقاعي ـ رحمه الله تعالى ـ: «هذا العلم يرسخ الإيمان في القلب، ويتمكن من اللب، وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين: أحدهما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب، والثاني: نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب. والأول أقرب تناولاً وأسهل ذوقاً، فإن كل من سمع القرآن من ذكي وغبي يهتز لمعانيه، وتحصل له عند سماعه رَوعة بنشاط، ورهبة مع انبساط لا تحصل عند سماع غيره، وكلما دقَّق النظر في المعنى عظم عنده موقع الإعجاز»[1]. ومن الأمثلة على ذلك قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾. [الأنعام: ١]. وكان خاتمة السورة التي قبلها قول الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾. [المائدة: ١٢٠]. فالمناسبة هنا أنَّ الله تعالى إذا عُلمَ أنه صاحب الملك والملكوت وأنه تعالى صاحب العزّ

= شرائع وقصص وصفات. وهذه السورة كلها صفات، فكانت ثلثاً بهذا الاعتبار».

(١) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»: (١/ ١١).

والسلطان، وأنه سبحانه الذي يقبض الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»[1]؛ ناسب أن يَعْقُبَ ذلك بالحمد؛ لأن الله تعالى استحق الحمد بفعله، فواجب على الخلق أن يثنوا عليه بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل بجميع الوجوه. أو يقال: إن آخر آيات سورة المائدة كانت في موضوع فصل القضاء؛ فناسب أن يأتي بعدها بالحمد والثناء؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾. [الزمر: ٧٥].

ومن لطائف «سورة الكوثر» مع «سورة الماعون»: أن الله تعالى وصف فيها المنافق بأمور أربعة: البخل، وترك الصلاة والرياء فيها، ومنع الزكاة. فذكر الله تعالى في «سورة الكوثر» مقابلة البخل بقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ أي: الكثير. وذكر في مقابلة ترك الصلاة: «فصلِّ» أي: دُم عليها. وذكر في مقابلة الرياء: «لربِّك»، أي لرضاه لا للناس، وذكر في مقابلة منع الماعون: «فانحر»، وأراد به التصدُّق بلحم الأضاحي[2].

إن هذه الطريقة تصلح لتحريك القلوب، ووعظ النفوس، وإيقاظ الفِطر من سباتها، وآية ذلك أن الرسول ﷺ كان

(١) «البخاري»: (رقم الحديث: ٦٥١٥)، و«مسلم»: (رقم الحديث: ٢٧٨٧).
(٢) «جواهر البيان»: (٣٠، ٣١، ١٤٥ ـ بتصرف يسير).

يخطب الجمعة بقراءة سورة «ق»[1]. والجمعة ـ كما هو معلوم ـ عيد إسلامي أسبوعي، يجمع المسلمين كلهم للإنصات والإفادة.

وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يقول: **«شيَّبتني هود وأخواتها»**[2]، وفي لفظ: **«شيَّبتني هود وأخواتها قبل المشيب»**[3]، وفي لفظ: **«شيَّبتني هود وأخواتها من المفصَّل»**[4]، وفي لفظ رابع: **«شيَّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت»**[5].

وفي هذه السور الكريمة من القوارع والقواصم ما يكفي للحثِّ على الاستعداد ليوم المعاد، والزهد في الحياة الدنيا، والله المستعان.

● **العمل بطريقة فقه النصوص:**

المقصود بهذه الطريقة: أن يتفطَّن المسلم للقرائن القرآنية

---

(١) «مسلم»: (رقم الحديث: ٥٧٢). وقال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم»: (ص/ ١٧٥٤): «والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السور في المجامع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب».

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط»: (٢/ ٩٠) وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه السيوطي في «الجامع الصغير»: (٢/ ٢٠٠) وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في «السنن»: (٣/ ١٨٠) وإسناده صحيح.

(٥) «الترمذي»: (رقم الحديث: ٣٢٩٧) وإسناده صحيح.

التي تضمَّنتها الآياتُ الكريمة، فيعرف فحوى الخطاب[1]، والمقاصد الأصلية[2]، والمقاصد التبعية[3]، ويعمل على الانتفاع بذلك في شأنه كله.

وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝٩٨﴾. [الأنعام: ٩٨]. وقال سبحانه: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٢٧﴾. [التوبة: ١٢٧].

---

(١) **فحوى الخطاب**: أحد قسمي مفهوم الموافقة. ويراد به أن يعلم أن المسكوت عنه في اللفظ، أولى بالحكم من المنطوق به، لوجود معنى فيه، يدرك كل عارف باللغة، أن الحكم في المنطوق به، كان لأجل ذلك المعنى، من غير حاجة إلى نظر واجتهاد. ففي قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾ [الإسراء: ٢٣]. علم من تحريم التأفف والنهر (المنطوق) تحريم الضرب (المسكوت عنه) من باب أولى.

(٢) **المقاصد الأصلية**: المعاني والأهداف الملحوظة للشرع، والمقصود هنا: الأهداف العامة، كالضروريات الخمس.

(٣) **المقاصد التبعية**: الأهداف والغايات الثانوية التي يسعى المكلَّف إلى تحقيقها من امتثاله لأوامر الشرع، وامتناعه عن نواهيه. وسُمِّيت هذه المقاصد تبعية، لأنها متفرِّعة من المقاصد الأصلية. مثال ذلك: قول الرسول ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لجمالها ولمالها ولحسبها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربتْ يداك». فالمقصد الأصلي من النكاح هو «التناسل»، وأما التمتع بجمال المرأة أو بمالها أو بحسبها، فإن هذه كلها مقاصد تبعية، للمكلف حظٌّ فيها. والشارع لا يعارض أن يكون للمكلَّف مقاصد تبعية، لا تتعارض مع المقاصد الأصلية. انظر: «معجم مصطلحات أصول الفقه»: (ص/٣١٢، ٤٣٢ ـ ٤٣٣).

قال الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: «اعلم أن الله تعالى إذا نفى الفقه أو العلم عن قوم، فذلك لوقوفهم مع ظاهر الأمر، وعدم اعتبارهم للمراد منه، وإذا أثبت ذلك، فهو لفهمهم مراد الله من خطابه، وهو باطنه»(١).

إن كتاب الله تعالى حوى علوماً جمَّة، وفوائد كثيرة غزيرة، لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتوفيق الله تعالى ثم بالتفطن لمواضعها في القرآن المجيد؛ بالتدبُّر تارة، وبسؤال أهل الذكر تارة، وبالتأمل في آيات الكتاب العزيز وأحاديث المصطفى ﷺ تارة ثالثة.

وقد صح عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «إذا أردتم العلم، فأثيروا القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين»(٢).

ولا ريب أن **الإمعان** في القرآن العظيم من أعظم النِّعم التي يُوفَّقُ إليها المجتهدون، **لكن شرط ذلك اكتمال العُدَّة وسلامة الفِطرة**. وقد تقدَّم هذا قريباً فلا أُعيدُهُ.

وقد وقفتُ على كلام بديع لابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ رَقَنَ فيه بعضاً من فِقه النصوص التي لا غنى لحيٍّ عنها، حيث يقول: «وأصول الطب ثلاثة: الحمية، وحفظ الصحة، واستفراغ المادة المضرة، وقد جمعها الله تعالى له ولأمته في

---

(١) «الموافقات»: (٤/ ٢١٤).

(٢) «الموافقات»: (٤/ ١٨٧).

ثلاثة مواضع في كتابه؛ فحمى المريض من استعمال الماء خشية الضرر، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. [النساء: ٤٣]. فأباح التيمم للمريض حمية له كما أباحه للعادم، وقال في حفظ الصحة: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. [البقرة: ١٨٤]. فأباح للمسافر الفطر في رمضان حفظاً لصحته لئلا يجتمع على قوته الصوم ومشقة السفر؛ فيضعف القوة والصحة، وقال في الاستفراغ في حلق الرأس للمحرم: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾. [البقرة: ١٩٦]. فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه وهو محرم أن يحلق رأسه ويستفرغ المواد الفاسدة والأبخرة الرديئة التي تولد عليه القمل كما حصل لكعب بن عُجْرَة، أو تولَّد عليه المرض، وهذه الثلاثة هي قواعد الطب وأصوله؛ فذكر من كل جنس منها شيئاً وصورة تنبيهاً بها على نعمته على عباده في أمثالها من حميتهم وحفظ صحتهم واستفراغ مواد أذاهم؛ رحمة لعباده ولطفاً بهم ورأفة، وهو الرؤوف الرحيم»[1].

وهذا الفقه الذي دلَّ عليه ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ **لا يوجد عادةً في دواوين التفسير**، ولكن يمكن العثور عليه

(١) «زاد المعاد»: (٤/٦ ـ ٧).

في تفاريق المصنَّفات المحققة[1]، كتصانيف «البخاري» و«ابن تيمية» و«ابن القيم» و«ابن كثير» و«ابن دقيق العيد» و«أئمة المذاهب الأربعة» ونحوهم من الراسخين في العلم - رحم الله الجميع -.

ومن لطائف «ابن حزم» - رحمه الله تعالى - أنه قال في بعض مُصنَّفاته: «كل أبواب الفقه ليس منها باب إلا وله أصل في الكتاب والسنة، نَعْلَمُهُ والحمد لله، حاشا القِراض[2]، فما وجدنا له أصلاً فيهما ألبتة»[3]! وليس همُّ ابن حزم - ولا غيره من أهل العلم - التنقير في المصحف وفليَ سطوره وصفحاته فحسب! إنما المراد البحث عن الأصول والكليات المعينة

---

(١) للعلامة محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله تعالى - رسالة بعنوان: «الإسلام دين كامل» أوضح فيها المسائل العشر العظام التي عليها مدار الدنيا والآخرة، وهي مفيدة وفريدة في بابها، وقد تضمنت تحقيقات وتنبيهات لا توجد عادة في المطولات. وأصل هذه الرسالة محاضرة ألقاها الشيخ بالمسجد النبوي بطلب من الملك محمد الخامس عاهل المغرب، عندما زار المدينة في أحد الأعوام.

(٢) القِراض: أن يدفع بعضُ الناس إلى غيره مالاً للتجارة والمشاركة في الربح. وهو نوع من أنواع الإجارة، وهو ثابت بقول الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ﴾ [القصص: ٢٧]. وفي «البخاري»: (رقم الحديث: ٢٢٦٢) مرفوعاً: «كنت أرعاها - الغنم - على قراريط لأهل مكة». انظر: «معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية»: (٣/ ٧٨).

(٣) «النُّبذ في أصول الفقه»: (ص/ ١١٨).

على العمل بما يحقق الإيمان في النفوس وينقذ النفس من دياجير الغفلة والجهالة.

ومما يعين على الانتفاع بهذا الأصل: معرفة الوجوه والنظائر، وهي: الألفاظ المشتركة التي تستخدم في أكثر من معنى، أو ما كان منها متواطئاً مع غيره[1]. وقد صحّ عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «لا يكون الرجل فقيهاً كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة»[2].

وهذه بعض الأمثلة المقتضبة في علم الوجوه والنظائر:

١ ـ «كل طعام في القرآن فهو نصف صاع»[3].

---

(١) «البرهان» للزركشي: (١/ ٢٠١)، و«الإتقان» للسيوطي: (١/ ٥٨١).

(٢) «الإتقان»: (١/ ١٨٥)، و«مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور: (٢٠/ ٣٢).
وفيه: عن ابن عباس: أن علي بن أبي طالب أرسله إلى الخوارج فقال: اذهب إليهم فخاطبهم، ولا تحاجهم بالقرآن فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة. وفي رواية: قال له: يا أمير المؤمنين فأنا أعلم بكتاب الله منهم، في بيوتنا نزل، قال: صدقت، ولكن القرآن حمال وجوه، تقول ويقولون، ولكن خاصمهم بالسنن فإنهم لم يجدوا عنها محيصاً، فخرج إليهم فخاصمهم بالسنن، فلم تبق بأيديهم حجة. اهـ. قلت: وقول أبي الدرداء رضي الله عنه المذكور أعلاه أورده بعض المصنفين مرفوعاً إلى الرسول ﷺ، وذلك غلط محض، فمن هؤلاء: ابن عبدالبر في «جامع بيان العلم»: (٢/ ٤٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (١١/ ٢٥٥)، وأبو نعيم في «الحلية»: (١/ ٢٨١)، والطناحي في «مقالاته»: (٢/ ٦٣٣). والصحيح وقفه على أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) «الاتقان»: (١/ ١٨٩).

٢ - «كل صوم في القرآن فهو متتابع إلا قضاء رمضان»[١].

٣ - «كل إنفاق في القرآن فهو الصدقة، إلا في قول الله تعالى: ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾. [الممتحنة: ١١]. أي: المهر»[٢].

٤ - «القنوت الذي ذكره الله في القرآن إنما يعني به الطاعة»[٣].

٥ - «كل شيء في القرآن فيه (أو) للتخيير، إلا قول الله تعالى: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾. [المائدة: ٣٣]»[٤].

٦ - «خمس آيات من كتاب الله رخصة، وليست بعزيمة، قول الله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾. [الحج: ٢٨]. فمن شاء أكل، ومن شاء لم يأكل، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾. [المائدة: ٢]. فمن شاء فعل، ومن شاء لم يفعل، وقوله سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾. [البقرة: ١٨٤]. فمن شاء صام ومن شاء أفطر، وقوله سبحانه: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾. [النور: ٣٣]. إن شاء كاتب، وإن شاء لم يفعل،

---

(١) «تفسير مجاهد»: (١/ ٢٠٣). قلت: وفي هذه المسألة خلاف بين الفقهاء. انظر: «المغني»: (١٣/ ٥٢٨).

(٢) «الدر المنثور»: (٣/ ١٣).

(٣) «تفسير الطبري»: (٥/ ٢٢٩).

(٤) «البرهان»: (٤/ ٢١٣).

وقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟﴾. [الجمعة: ١٠]. إن شاء انتشر، وإن شاء لم ينتشر»[١].

* * *

(١) «الدر المنثور»: (٣/ ١١).

الفصل الثالث
بحوث ومناقشات في المعارف القرآنية

أعْقدُ هنا سطوراً يسيرات، أضمُّ إليها بحوثاً ومناقشات، يُفيد منها المبتدي، ويأنسُ بها المنتهي، وموضوعها ـ كما هو معلوم ـ: «المذهبُ الذي يرسخ ولا يُنسخ، ويعلو فرعهُ ويشمخ، ما كان مجناه من حبَّات القلوب، وسُقياه من الشراب الطهور المنقَّى من العيوب، الكاشف لأسرار الغيوب، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد»[1].

● **السؤال الأول**: المعضلة التي أعاني منها؛ أنني كلما قرأت صفحات من كتاب الله تعالى؛ أشعر في داخلي برغبة في العودة إلى ما بدأت بقراءته أولاً، وأحسُّ بوخز الضمير لأنني لم أستفد من قراءتي رغم كثرة ما قرأته، فما الجواب؟

● **الجواب**: هذه المعضلة التي أوردها السائل تكمن في أمرين:

الأول: شرود الذهن وعدم التركيز.

الثاني: القراءة بلا تدبُّر.

وبناء على هذا فيلزم السائل إحضار ذهنه وتركيز انتباهه

---

(١) «استخراج الجدال من القرآن الكريم» (ص/٨).

عند تلاوة كتاب الله تعالى، ومما يُعين على هذا الأمر؛ الالتفات إلى مقاصد القرآن والتمعن في ألفاظه ومعانيه، مع استحضار خشية الله ومناجاته والتلذذ بتلاوة كلامه. فمن أيقن بهذا ونفَّذه علماً وعملاً؛ فإن الله تعالى يهدي قلبه وعقله كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾. [الزمر: ٢٣].

وقد يعجب بعض القراء ـ عند التلاوة ـ من تكرار القصص والأحكام والوصايا في آيات كثيرة متقاربة، وقد يؤدي به هذا إلى قطع تأمله وتدبره وتمعنه، فيحرم بهذا من فوائد غزيرة.

والقرآن العظيم مثاني «تثنَّى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثنى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته وحسنه، فإنه تعالى لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت، وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذل القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى

مدة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعاً، ولم تحصل النتيجة منه وهكذا ينبغي للقارىء للقرآن، المتدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبُّر في جميع المواضع منه، فإنه يحصل له بسبب ذلك، خير كثير، ونفع غزير»[1].

ويقال للسائل: إنَّ من أهم العوامل التي تحفظ الذهن من الشُّرود والخواطر النازعة؛ اتباع طريقة رسول الله ﷺ في قراءة القرآن وتلاوته. فقد كان رسول الله ﷺ يقطعُ قراءته، ويقف عند كل آية فيقول: «الحمد لله رب العالمين» ويقف، «الرحمن الرحيم» ويقف، «مالك يوم الدين» ويقف[2]. وقد كانت قراءة الرسول ﷺ آية آية. أي أنه يقف عند رؤوس الايات وإن تعلقت بما بعدها. وثبت عنه ﷺ أنه كان يرتِّل السورة حتى تكون أطول من أطول منها، وكان يمدُّ مدًّا. قال قتادة: سئل أنس: كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مدًّا، ثم قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم» يمد ببسم الله، ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم[3].

وقد قال عبدالرحمن بن أبي ليلى: دخلت عليَّ امرأة وأنا أقرأ سورة هود، فقالت: يا عبدالرحمن: هكذا تقرأ سورة

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص/ ٥٤٧).

(٢) أخرجه الترمذي في «جامعه»: (رقم الحديث: ٢٩٢٨) وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (رقم الحديث: ٥٠٤٦). وانظر: «زاد المعاد» (١/ ٤٨٢).

هود؟! والله إني فيها منذ ستة أشهر وما فرغت من قراءتها[1].

● **السؤال الثاني: ما المقصود بالإعجاز القرآني؟ وما أنواعه؟ وكيف أستفيد منها؟**

الجواب: الإعجاز القرآني: اشتمال القرآن على نواحي التحدي والغلبة في الفصاحة والبيان والعلوم والوقائع والأحداث، مع عجز المخاطبين عن الإتيان بمثل القرآن جملة وتفصيلاً.

والذي عليه أهل التحقيق: أن القرآن معجز في بلاغته وأسلوبه ونظمه وأخباره وعلومه ومعارفه، ولا يجوز حصر إعجازه في وجه واحد في الوجوه المتقدمة.

وقد ورد التحدي بالقرآن في خمس آيات من آياته الكريمة:

الأولى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾. [الإسراء: ٨٨].

الثانية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟﴾. [هود: ١٣].

الثالثة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾. [يونس: ٣٨].

الرابعة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾. [الطور: ٣٣].

---

(١) «أخبار القضاة»: (٢/٤٠٧).

الخامسة: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾.

والإعجاز القرآني له أنواع وأفنان من أشهرها:

أ ـ الإعجاز البياني[١].

ب ـ الإعجاز التشريعي[٢].

جـ ـ الإعجاز العلمي[٣].

د ـ الإعجاز العددي[٤].

أما كيفية الإفادة من وجوه إعجاز القرآن المجيد، فإن

---

(١) يقصد بالإعجاز البياني: مظاهر الفصاحة وأشكالها في ألفاظ القرآن وحروفه وجمله، كما في قول الله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾. [المدثر: ٣]. وقول الله تعالى: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ﴾ [الأنبياء: ٣٣]. فإن هاتين الآيتين تقرءآن طرداً وعكساً.

(٢) يقصد بالإعجاز التشريعي: مظاهر الكمال والشمول والحكمة الدقيقة في إحاطة القرآن بجميع مناحي الحياة وتشخيصها البديع الصالح لكل زمان ومكان. وللوقوف على مثال يسير في هذا الجانب راجع لزاماً تفسير سورة البقرة وتأمل.

(٣) يقصد بالإعجاز العلمي: سبق القرآن المجيد للحقائق العلمية الثابتة التي قامت الحجة بوقوعها، مما يملأ النفوس إيماناً بالله وثقة بكتابه. وأفضل من كتب في الإعجاز القرآني ـ من المعاصرين ـ مدحت إبراهيم في «الإشارات العلمية في القرآن الكريم»، والشيخ عبدالمجيد الزنداني في محاضراته المرئية والمسموعة، والأستاذ حسن أبو العينين في كتابه: «من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم».

(٤) يقصد بالإعجاز العددي: عرض أسرار النظام الرقمي بما يحقق سبق القرآن إلى التكامل المعلوماتي. وهذا النوع لم يستسغه كثير من علماء العصر، انظر: «معجزة القرآن في عصر المعلوماتية» لعبدالدائم الكحيل.

ذلك يُلخِّص في كلمتين: «الإيمان» و«الإمعان». وقد أشار الحق سبحانه إلى هذه القاعدة الجليلة كما في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾. [فصلت: ٥٣].

ورؤية الحق قد تكون قلبية وقد تكون بصرية، وقد تقدم ما يدل على هذا في تضاعيف الكتاب.

● **السؤال الثالث: كيف نردُّ على شبهات المعاندين والمبطلين من خلال آيات الذكر الحكيم؟**

● **الجواب**: هذا سؤال عظيم، وللإجابة عليه لابد من التنبيه على ثلاثة أمور:

ـ الأول: ضرورة معرفة الشبهة وحدودها.

ـ الثاني: ضرورة معرفة الوسط الذي تروَّج فيه الشبهة.

ـ الثالث: ضرورة معرفة طريقة الاستدلال لإبطال الشبهة.

فبادىء ذي بدء ينبغي لكل معتنٍ بعلوم الشرع الحكيم أن يعرف شبه الملحدين والمبطلين، وأن يفهم حدودها وأبعادها وكيفياتها من المصادر الأصلية الموثقة. والشبه كثيرة عند المعاندين بكثرة نجوم الفلك، لكنها في الغالب لا تخرج عن أربع.

الأولى: شبه في الغيبيات.

الثانية: شبه في الكونيات.

الثالثة: شبه في الرسالات.

الرابعة: شبه في المحسوسات[1].

إذا تبين هذا فإنَّ مما يُسهِّل على المسلم دفع الشبهات؛ معرفة الوسط الذي ذاعت وانتشرت في أرجائه. والذي يقرأ التاريخ الإسلامي بتمعُّن يلحظ أن كثيراً من الشبه نشأت وذاعت في بيئات معيَّنة. فالمغرب العربي والعراق نشأت فيه

---

(١) من أشهر الشبه في العصر الحاضر شبه الصوفية والقبورية التي يستدلون بها على جواز التوسل والاستغاثة بغير الله تعالى، وهي شبه قديمة؛ لكنها راجت على العوام فعمت وطمت. ومن أمثلة ذلك استدلالهم بقصة هاجر رضي الله عنها حين تركها إبراهيم مع ابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ بمكة، ولما اشتد عليها وعلى ابنها العطش، هبطت من الصفا ثم أتت المروة، فقامت عليها فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبعاً، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث. وفي لفظ: «أغث إن كان عندك خير». وهذا الحديث الثابت في صحيح البخاري لا دلالة فيه على جواز الاستغاثة بغير الله تعالى، لأن هاجر ألهمت صوت جبريل عليه السلام، فطلبت منه ـ وهو حاضر حي ـ ما كان يقدر عليه، ومعاذ الله، أن تقع هاجر في الشرك، وحاشاها أن تشرك بالله، ومن شبه المعاصرين الخبيثة، شبه الشيوعية الملاحدة الذين ينكرون وجود الله، ويغيرون تاريخ البشرية من خلال مفهوم الصراع الطبقي، ويحاربون الأديان، ويحاربون الملكية الفردية، وينادون بأزلية المادة، وأن العوامل الاقتصادية هي المحرك الأول للأفراد والجماعات. انظر تفصيلاً وافياً عن هذه الشبه وغيرها في: «الشرك في القديم والحديث» لمحمد زكريا: (ص/ ٦٨١ ـ وما بعدها)، و«صراع مع الملاحدة حتى العظم» للميداني: (ص/ ١٠٥ ـ ١٠٦)، و«الاتجاهات الفكرية المعاصرة» للخولي: (ص/ ١٨٠) والموسوعة العربية العالمية: (١٤/ ٣١٩).

شبه الرفض والتشيُّع، وكذا إيران وخراسان. وفي الحجاز واليمن والهند عُرفت الصوفية والطرقية وتقديس الأولياء، وكذا في مصر والشام.

والأمثلة على هذا أشهر من أن تُحْصَر. أما طريقة الاستدلال لإبطال الشُّبه المختلفة؛ فتكون بالاستعانة بالله أولاً ثم بتتبُّع الجادة التي يسلكها العلماء الراسخون في تقرير الحق وتفنيد الباطل ومحو الغلط في وجوه الأدلة. ومن بدائع طريقة الاستدلال لإبطال الشبه؛ ما أورده القرافي ـ رحمه الله تعالى ـ في ثنايا ردِّه على النَّصارى القائلين بأنَّ عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الله ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ـ ودحض استدلالهم بقول الله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. حيث قال:

«**الجواب من وجوه أحدها**: أنَّ من المحال أنْ يكون المراد الروح والكلمة على ما تدّعيه النصارى، وكيف يليق بأدنى العقلاء أن يصف عيسى عليه السلام بصفة، وينادي بها على رؤوس الأشهاد، ويُطبِّق بها الآفاق، ثم يُكفر من اعتقد تلك الصفة في عيسى عليه السلام، ويأمر بقتالهم وقتلهم وسفك دمائهم وسبى ذراريهم، وسَلْب أموالهم، بل هو بالكفر أولى لأنه يعتقد ذلك مضافاً إلى تكفير غيره، والسعي في وجوه ضرره، وقد اتفقت المِلل كلها مؤمنها وكافرها على أنه عليه السلام من أكمل الناس في الصفات البشرية خلقاً

وخُلقاً وعقلاً ورأياً، فإنها أمور محسوسة، إنما النزاع في الرسالة الربانية، فكيف يليق به عليه السلام أن يأتي بكلام هذا معناه، ثم يقاتل مُعْتَقِده ويُكفره، وكذلك أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ والفضلاء من الخلفاء من بعده، وهذا برهان قاطع على أنَّ المراد على غير ما فهمه النصارى.

ثانيها: أن الروح اسم الريح الذي بين الخافقين يقال لها: ريح وروح لغتان، وكذلك في الجمع رياح وأرواح، واسم لجبريل عليه السلام وهو المسمى بروح القدس، والروح اسمٌ للنفس المقومة للجسم الحيواني، والكلمة اسم للفظة المفيدة من الأصوات.

وتُطلق الكلمة على الحروف الدالة على اللفظة من الأصوات، ولهذا يقال: هذه الكلمة خط حسن ومكتوبة بالحبر، وإذا كانت الروح والكلمة لهما معان عديدة فعلى أيهما يحمل هذا اللفظ؟ وحمل النصراني اللفظ على معتقده تَحَكُّم بمجرد الهوى المحض.

وثالثها: وهو الجواب بحسب الاعتقاد لا بحسب الإلزام، أنَّ معنى الروح المذكور في القرآن الكريم في حق عيسى عليه السلام هو الروح الذي بمعنى النفس المقوِّم لبدن الإنسان، ومعنى نفخ الله تعالى في عيسى عليه السلام من روحه أنه خلق روحاً نفخها فيه، فإنَّ جميع أرواح الناس يَصْدُقُ أنها روح الله، وروح كل حيوان هي روح الله تعالى،

فإن الإضافة في لسان العرب تصدق حقيقة بأدنى الملابسة؛ كقول أحد حاملي الخشبة للآخر: شل طرفك يريد طرف الخشبة، فجعله طرفاً للحامل، ويقول: طلع كوكب زيد إذا كان نجم عند طلوعه يسري بالليل، ونسبة الكوكب إليه نسبة المقارنة فقط، فكيف لا يضاف كل روح إلى الله تعالى، وهو خالقها ومدبرها في جميع أحوالها؟ وكذلك يقول بعض الفضلاء لمّا سئل عن هذه الآية فقال: نفخ الله تعالى في عيسى عليه السلام روحاً من أرواحه، أي جميع أرواح الحيوان أرواحه، وأما تخصيص عيسى عليه السلام بالذكر فللتنبيه على شرف عيسى عليه السلام، وعلو منزلته بذكر الإضافة إليه، يقال: كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ . [الأنفال: ٤١]. و﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ . [الحجر: ٤٢]. مع أنَّ الجميع عبيده، وإنما التخصيص لبيان منزلة المخصص، وأما الكلمة فمعناها أنَّ الله تعالى إذا أراد شيئاً يقول له: كن فيكون، فما من موجود إلا وهو منسوب إلى كلمة كن، فلما أوجد الله تعالى عيسى عليه السلام قال له: كُنْ في بطن أمك فكان، وتخصيصه بذلك للشرف كما تقدَّم، فهذا معنى معقول مُتصوّر ليس فيه شيء كما بيعتقده النصارى من أنَّ صفة من صفات الله حلَّت في ناسوت المسيح عليه السلام، وكيف يُمكن في العقل أن تفارق الصفة الموصوف، بل لو قيل لأحدنا: إن علمك أو حياتك انتقلت لزيد لأنكر

ذلك كل عاقل، بل الذي يمكن أن يوجد في الغير مثل الصفة، وأما أنها هي في نفسها تتحرك من محل إلى محل فمحال؛ لأن الحركات من صفات الأجسام، والصفة ليست جسماً، فإن كانت النصارى تعتقد أن الأجسام صفات، والصفات أجسام، وأن أحكام المختلفات وإن تباينت شيء واحد سقطت مكالمتهم، وذلك هو الظن بهم؛ بل يُقطع بأنهم أبعد من ذلك عن موارد العقل ومدارك النظر، وبالجملة فهذه كلمات عربية في كتاب عربي، فمن كان يعرف لسان العرب حق معرفته في إضافاته وتعريفاته وتخصيصاته، وتعميماته، وإطلاقاته وتقييداته، وسائر أنواع استعمالاته فليتحدَّث فيه ويستدل له، ومن ليس كذلك فليُقلِّد أهله العلماء به، ويترك الخوض فيما لا يعنيه ولا يعرفه»[1].

● **السؤال الرابع: اذكر نبذة مختصرة عن مخارج الحروف وصفاتها.**

● **الجواب**: قال الإمام ابن الجزري رحمه الله تعالى:

مخـــارج الحـــروف سبعـــة عشـــر
علـــى الـــذي يختـــاره مـــن اختبـــر[2]

والمخارج على قسمين:

١ ـ **كلي**: وهو ما يخرج منه أكثر من حرف وذلك

(١) «الأجوبة الفاخرة» للقرافي: (ص ٢٦٨ ـ بتصرف يسير).

(٢) «طيبة النشر»: (ص/١٣).

كأقصى الحلق ووسط اللسان.

٢ ـ **جزئي**: وهو ما يخرج منه حرف واحد نحو ﴿ق﴾ من أقصى اللسان مستعلياً، و(الكاف) من أقصى اللسان مستقلاً وهكذا.

ومخارج الحروف سبعة عشر مخرجاً على المختار ترجع إلى خمس محال رئيسة[1]:

١ ـ **الجوف**: ويراد به فضاء الفم ويخرج منه ثلاثة أحرف وهي:

أ ـ الألف الساكنة المفتوح ما قبلها.

ب ـ الياء الساكنة المكسور ما قبلها.

جـ ـ الواو الساكنة المضموم ما قبلها.

وتعرف بالأحرف المدِّيَّة والجوفية والهوائية.

٢ ـ الحلق: وفيه ثلاثة مخارج:

أ ـ أقصى الحلق مما يلي الصدر، ويخرج منه الهمزة والهاء.

ب ـ وسط الحلق، ويخرج منه العين والحاء.

جـ ـ أدنى الحلق مما يلي الفم، ويخرج منه الغين والخاء.

٣ ـ اللسان: وفيه عشرة مخارج:

أقصى اللسان: ١ ـ مخرج القاف مستعلية.

---

(١) قال بعض أهل التحقيق: إذا أردت معرفة مخرج حرف ما فعليك بتسكين الحرف أو تشديده، ثم أدخل همزة الوصل عليه ثم انطقه مصغياً، فحيث انتهى وانقطع الصوت يكون مخرج ذلك الحرف.

٢ ـ مخرج الكاف مستقلة، ويلقبان باللهويين؛ وذلك لأن مخرج كل منهما قريب من اللهاء وهي اللحمة المشرفة على الحلق.

٣ ـ وسط اللسان، ويخرج منه الجيم والشين والياء غير المدِّيَّة (جيش).

٤ ـ حافة اللسان المحاذية للأضراس العليا اليمنى أو اليسرى، ويخرج منها الضاد ومن اليسرى أكثر، وربما يخرج منهما لكن هذا قليل بل ربما نادر.

٥ ـ حافتا اللسان المحاذيتان لما بعد الأضراس من أسنان ممتدتان إلى طرف اللسان ويخرج منهما اللام.

٦ ـ ٧ ـ طرف اللسان بالاشتراك مع الحنك الأعلى ويخرج منهما الراء والنون، إلا أن الراء أقرب إلى ظهر اللسان من النون.

٨ ـ طرف اللسان والثنايا السفلى، ويخرج منه أحرف الصفير (ص، ز، س).

٩ ـ طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، ويخرج منه الأحرف اللثوية وهي: (ث، ذ، ظ).

١٠ ـ طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، ويخرج منه الأحرف النطعية، وهي: (ط، د، ت) وبهذا تتم مخارج اللسان العشرة.

٤ ـ الشفتان: وفيهما مخرجان:

أ ـ بطن الشفة وأطراف الثنايا العليا ويخرج منه الفاء.
ب ـ الشفتان معاً ويخرج منهما الباء والميم والواو غير المدية إلا أن الباء والميم يخرجان بانطباقهما والواو تخرج بانفتاحهما.

٥ ـ **الخيشوم**: ويخرج منه أحرف الغنة وهي: (النون الساكنة والتنوين حال إدغامهما بأحرف (ينمو)، وحال إقلابهما ميماً لدى الباء، وحال إخفائهما عند حروف الإخفاء، والميم الساكنة حال إدغامها بمثلها، وحال إخفائها عند الباء، والميم والنون المشددتان، وبهذا تتم مخارج الحروف[1].

---

(١) **اختلف أهل القراءة واللغة في عدد المخارج على ثلاثة مذاهب:**
المذهب الأول: أنها سبعة عشر مخرجاً على القول الذي اختاره من اختار ذلك من أهل المعرفة بها كالخليل بن أحمد ومن تبعه من المحققين كالحافظ ابن الجزري وغيره فقد جعل في الجوف واحداً وفي الحلق ثلاثة وفي اللسان عشرة وفي الشفتين اثنين وفي الخيشوم واحداً.
المذهب الثاني: ستة عشر مخرجاً على قول سيبويه ومن تبعه كالشاطبي وابن برى رحمهما الله تعالى، فقد أسقطوا مخرج الجوف الذي هو مخرج حروف المد الثلاثة، ووزعوا حروفه على مخارج الحلق واللسان والشفتين؛ فجعلوا مخرج الألف من أقصى الحلق مع الهمزة، والياء من وسط اللسان مع المتحركة أو الساكنة بعد فتح، والواو من الشفتين مع الواو المتحركة أو الساكنة بعد فتح.
المذهب الثالث: وهو مذهب الفراء والجرمي وقطرب وابن كيسان إلى أنها أربعة عشر مخرجاً بإسقاط ما سبق وجعل النون واللام والراء مخرجاً واحداً،=

● **وأما صفات الحروف فعددها سبع عشرة صفة.**

وقال الإمام الشاطبي: عددها ست عشرة صفة.

وقال الفراء: إنها أربع عشرة صفة، إلا أننا نأخذ بقول ابن الجزري رحمه الله تعالى، وهو أنها سبع عشرة صفة، وتنقسم إلى متضادة وغير متضادة.

والمتضادة وعددها عشر صفات:

الجهر وضده الهمس: وحروف الهمس عشرة جمعت في قولهم: (سَكَتَ فحثَّهُ شخصٌ) وما سواها مجهور.

- **والجهر**: حبس النفسِ عند النطق بالحرف لقوة الاعتماد على مخرج الحرف.
- **والهمس**: جريُ النفس عند النطق بالحرف لضعف الاعتماد على مخرج الحرف.
- **الشدة والرخاوة**: والأحرف الشديدة ثمانية جمعت في قولهم: (أجدْ قَطٍ بَكَتْ) وما سواها رخوٌ، إلا خمسة أحرف جُمعت في قولهم: (لِنْ عُمَر) فإنها بينية بين الشدة والرخاوة أو متوسطة.
- **الشدة**: وهي حبس الصوت عند النطق بالحرف لكمال الاعتماد على المخرج.

= وجعل مخارج اللسان ثمانية.

(والجمهور على المذهب الذي ذكره ابن الجزري، وهذه المخارج تسمى المخارج الخاصة، والله أعلم).

ـ **الاستعلاء والاستفال**: وحروف الاستعلاء سبعة جمعت في قولهم: (خص ضغط قظ) وما سواها من الحروف مستفل، وكل مستعلٍ مفخم ما لم يكن مكسوراً، وكل مستفل مرفق إلا الراء تفخم في أحوال وتُرقق في أحوال كما سيأتي، وكذلك لام لفظ الجلالة (الله) فإنها تُفخم بعد الفتح والضم وتُرقَّق بعد الكسر، وكل ألف مدِّيَّة فإنها تتبع ما قبلها تفخيماً وترقيقاً.

الاستعلاء: هو ارتفاع اللسان عند النطق بالحرف نحو الحنك الأعلى.

الاستفال: هو انخفاض اللسان عند النطق بالحرف نحو قاع الفم.

ـ **الإطباق وضده الانفتاح**: حروف الإطباق أربعة (صاد، ضاد، طاء، ظاء) وما سواها من الحروف منفتح.

الإطباق: هو التصاق أكثر اللسان عند النطق بالحرف بالحنك الأعلى. وسميت بذلك لانطباق اللسان على ما يقابله من الحنك الأعلى عند النطق بها.

الانفتاح: هو عكس الإطباق وهو تجافي أكثر اللسان عن الحنك الأعلى عند النطق بالحرف المنفتح.

الإذلاق وضده الإصمات: حروف الإذلاق ستة مجموعة في قولهم: (فرَّ من لُبٍّ) وما سواها مصمت.

الإذلاق: هو خروج هذه الحروف من طرف اللسان

والشفتين عند النطق.

الإصمات: هو امتناع حروفه من تكوين كلمة عربية إذا كانت رباعية الحروف أو خماسية الأصول ما لم يكن فيها حرف من حروف الإذلاق (فرّ من لبّ).

● **الصفات التي لا ضدّ لها**: وهي سبع:

١ ـ **الصفير**: لغة: صوت يشبه صوت الطائر؛ وهو صوت يخرج من الشفتين عند النطق بالحرف، وحروفه: (ص، ز، س).

٢ ـ **اللين**: وحرفاه الواو والياء إذا سكنا وانفتح ما قبلهما، لأنهما يخرجان بيسر وسهولة.

٣ ـ **القلقلة**: وحروفها خمسة جُمعت في قولهم: (قطب جد) وهي عبارة عن اضطراب في مخرج الحرف عند الخروج من مخرجه.

٤ ـ **التفشي**: وهو الانتشار، وهو انتشار الهواء بالفم عند النطق بحرف الشين. . . وهو صفة للشين.

٥ ـ **الاستطالة**: وهي صفة مخرجية للضاد لا صوتية، وهي (امتداد صوت الضاد من مخرجها من أول حافة اللسان إلى أن تصل إلى مخرج اللام).

وصفات الضاد: الاستطالة ـ الاستعلاء ـ الإطباق ـ الإصمات ـ الجهر ـ الرخاوة.

ومخرج الضاد: من حافة اللسان مع ما يليها من الأضراس

العليا اليسرى أو اليمنى أو معهما معاً وهذا قليل جداً.

٦ ـ **الانحراف**: وهو صفة للام والراء، ومعناه: أن اللام والراء يخرجان مائلين عن مخرجيهما.

٧ ـ **التكرار**: وهو صفة للراء، لكن ينبغي التحفظ والاحتراز منها، لأن الراء إذا كررت زِيد في القرآن ما ليس منه[١].

● **السؤال الخامس: يخلط كثير من الناس بين نطق «الضاد» و«الظاء» فما القول الفصل في هذه المسألة؟**

● **الجواب**: «الضاد» و«الظاء» حرفان من حروف الهجاء الثمانية والعشرين أو التسعة والعشرين، وكل حرف منهما مستقل بمخرجه المتباين عن المخرج الآخر، فالضاد تخرج من حافة (جانب) اللسان، المحاذية للأضراس العليا، بينما الظاء، تخرج من طرف اللسان ومن بين أطراف الثنايا العليا كالذال والثاء، (اللثوية)، ولكل حرف منهما جرس معين يميزه عن الاخر، ثم إن الضاد وإن وافق الظاء في أكثر صفاته لكنه يتميز عن الظاء باستطالته وبُعد مخرجه عن الظاء، وما يدَّعيه بعض الأعاجم من أن الضاد يشبه الظاء فدعوى باطلة فيها تحريف وإلغاء لحرف من حروف اللغة العربية، وأي

(١) انظر: «نهاية القول المفيد في علم التجويد» (ص/٤٣ ـ ٤٤) و«المفيد ـ أحكام وقواعد في علم التجويد» لمحمد عبدالحكيم سعيد العبدالله. وكتابه هذا من أفضل كتب التجويد وقواعده.

شخص بقي مصرًّا على هذا متجاهلاً ما نُقل متواتراً عن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام والتابعين ومن بعدهم من أهل الأمانة، فهو من الذي يحرفون كلم الله، ويكون بهذا إن بقي مصرًّا على أعجميته والتي لا يحسن غيرها، يكون أمثال الذين حرفوا الكَلِمَ عن مواضعه، والأصل في هذا الحرف وغيره التلقي والمشافهة عن أهل هذا العلم المتقنين العارفين.

ومن الأمثلة التي يباين فيها الضاد الظاء: قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾. [التكوير: ٢٤]. وقد أتت هذه الآية على قراءتين، كل قراءة منها لها توجيهها المختلف عن الأخرى، إذ إن معنى (ضنين): بخيل، و(ظنين): المتهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾. [القيامة: ٢٢، ٢٣]. فمعنى (ناضرة): ناعمة مشرقة، بينما (ناظرة): وهي بمعنى النظر والرؤية.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾. [هود: ٤٤]. فمعنى (غيض): أي نقص الماء، بينما (غيظ): من الغيظ والحقد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾. [الأحزاب: ٣٦]. وهو من الضلال والحيرة، بينما (ظل) أي أقام في مكانه، أو بقي على ما هو عليه.

والأمثلة كثيرة في هذا الباب، وللعلماء مؤلفات يُفرِّقون فيها بين الضاد والظاء، ولم ينقل منهم أحد أن هذا كهذا، وللعماء أيضاً ردود كثيرة يفندون فيها مزاعم القائلين بأن

الضاد تشبه الظاء كأمثال الشيخ المنصوري والأميري والدكتور أشرف فؤاد طلعت، الذي ألف كتاباً قيماً سمَّاه: (إعلام السادة النجباء أنه لا تشابه بين الضاد والظاء)، وغيرهم من العلماء كثير.

واعلم رحمك الله تعالى أن الضاد تخرج من المخرج الرابع من المخارج، وهو حرف مجهور رخو مستعلٍ مطبق مستطيل قوي، وهو أعسر الحروف نطقاً على اللسانٌ، وقلَّ من يحسنه، ويقع الخطأ فيه من أوجه:

١ ـ إبدالها طاءً مهملة، قال في التمهيد: «ومن الناس من لا يخرجها من مخرجها، بل يخرجها دونه ممزوجة بالطاء المهملة، وهم أكثر أهل مصر وبعض أهل المغرب الأقصى، وأما الأدنى فإنهم يبدلونها ظاء معجمة لأنه ميسر على اللسان لأن الحرفين متقاربان، واشتركا في الصفات».

٢ ـ ومنها ترقيقها ولابد فيها من التفخيم البين، فإن كان بعدها ألف فلابد من تفخيمه معها (الضالين).

٣ ـ ومنها إبدالها ظاء مشالة وهذا هو الكثير الغالب، وأهل المغرب الأدنى كلهم عليه؛ لأنهما تشاركا في جميع الصفات إلا الاستطالة، فلولا الاختلاف في المخرج وفي هذه الصفة لكانا حرفاً واحداً.

والمحققون من أهل العلم يرون أن هناك فرقاً بين الضاد والظاء المشالة من عدة وجوه:

أولاً: أن الضاد لا يشركها في صفة الاستطالة غيرها من الحروف.

ثانياً: أن الضاد في ذاتها قوية، والظاء ضعيفة إذ على قدر ما في الحروف من الصفات القوية تكون قوته، وعلى قدر ما فيه من الصفات الضعيفة يكون ضعفه، والضاد قد حوت من الصفات القوية ما لم تحوِ الظاء، ومن ثم كانت الضاد من أقوى الحروف بعد الطاء.

ثالثاً: الضاد العربية الفصيحة لا تشبه الظاء المشالة بحال من الأحوال لاستقلال كل منهما بمخرج، وزيادة الاستطالة في الضاد، ودعوى تشابههما غير قائمة على دليل واضح، أو قياس صحيح، ولو اجتمع أكثر من حرف فلابد أن يتميز كل حرف من هذه الحروف المشتركة في هذا المخرج ولو بصفة واحدة على الأقل، وتكون هذه الصفة لتمييز كل حرف عن الآخر تمييزاً كاملاً واضحاً، والأدلة كثيرة في هذا الباب، وأمثلته من الحروف كالزاي والسين واللام والراء وغيرها.

رابعاً: لو تأملنا بين مخرج الضاد ومخرج الظاء لوجدنا أن بينهما خمسة مخارج لتسعة أحرف، وهي:

مخرج اللام ومخرج النون ومخرج الراء والمخرج الرابع مخرج الطاء والتاء والدال، (النطعية)، والمخرج الخامس مخرج حروف الصفير، فكيف ننطق بالضاد شبيهة بالظاء وبينهما هذا البعد، فهل هناك أعظم من هذا دليلاً على أن

الضاد لا تشبه الظاء وقد أمرنا بالتمييز بينهما.

خامساً: قولهم: إن الضاد رخوة كالظاء فيجب النطق بها كالظاء؛ لأن النطق الآخر كالدال المفخمة ليس فيه رخاوة وفيه شدة، فالجواب عليهم من أمرين:

أ ـ إن الضاد والظاء وإن اشترك في صفة الرخاوة إلا أن الرخاوة في الضاد أقل منها في الظاء، كما صرح بذلك سيبويه أن رخاوة الظاء أكثر من رخاوة الضاد.

ب ـ إن الضاد وإن شاركت الظاء في خروج مثل النفخ الناشىء عن الرخاوة إلا أن بينهما تفاوتاً فيه على ما يحوي كل منهما من صفات القوة، ولما كانت الضاد قد حوت من الصفات القوية ما لم تحوه الظاء كان خروج مثل النفخ منه مع الظاء[1].

وهذه المسألة ـ في الفرق بين «الضاد» و«الظاء» ـ وإن اتضحت جلية من خلال الفروق المعنوية إلا أن تلقِّيها مشافهة من مجودٍ متقن أمر هام ونافع لا غنى لقارىء عنه، وبالله التوفيق.

● **السؤال السادس: ما المقصود باللحن؟ وما أنواعه؟**

● **الجواب**: اللحن هو الخطأ والميل عن الصواب في أداء القراءة، وقد قسمه القراء إلى نوعين: جلي وخفي:

---

(١) «المفيد» لمحمد عبدالحكيم: (ص/ ٤٥ ـ ٤٧) بتصرف يسير.

* **اللحن الجلي**: هو خطأ يطرأ على الألفاظ، فيخل بعرف القراءة سواء أخل بالمعنى أم لا.

وسمي جلياً لاشتراك علماء القراءة وعامة الناس في معرفته.

ويكون هذا اللحن في مبنى الكلمة - أي حروفها - أو الحركة أو السكون، فيكون بإبدال حرف بحرف، أو حركة بحركة أو سكون، أو إسقاط واحد منها أو زيادته.

مثاله: تغيير أحرف (أَنْعَمْتَ) أو حركاتها بحيث تصبح: (العمت) أو (انمعت) أو (أنعمتُ) أو (أنعمتِ)، ومثاله كذلك: فتح التاء في قوله سبحانه: ﴿ما قُلْتُ لَهُمْ﴾ أو ضم الهاء أو نصبها أو فتح الدال من قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أو إبدال الضاد دالاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ وهذه الأمثلة تدل على تغيير بنية الحرف وهو لحن جلي فيه إخلال بالمعنى.

ومثال الإخلال ببنية الحرف دون أن يخل بالمعنى أن يقرأ: الذال زاياً في (الذين) و(هذا).

* **اللحن الخفي**: هو خطأ يطرأ على الألفاظ فيخل بعرف القراءة، ولا يخل بالمعنى.

وسمي خفيًا لأنه لا ينتبه له إلا العالمون بالقراءة، ويختص القراء في معرفته. وهذا اللحن يتفاوت القراء في معرفته، فبعضه يعرفه كل مجود، وذلك كتكرير الراءات، وتغليظ

اللامات، وترك الادغام أو الإخفاء، وتليين المشدد، وتشديد المخفف، وقصر الممدود، ومد المقصور، وبعضه لا يعرفه إلا الضابطون من أهل الفن كزيادة مقدار المد أو نقصه، وبعضه لا يتنبه له إلا المتقنون المحققون كالاتكاء على الحرف، والتسوية بين مواضع الحكم الواحد في مقاره.

ومن اللحن الخفي قراءة الضمة بصوت بين الضمة والفتحة، فلا يضم اللاحن شفتيه إلى الأمام كما يجب خاصة، في نحو الكلمات التالية:

(عليكم)، (أنتُم)، (قُل).

ومن اللحن الخفي قراءة الكسرة بين الكسرة والفتحة خاصة في نحو الكلمات التالية:

«عليهم»، «به».

ومن اللحن الخفي: ترك الغنة وقصر الممدود، وغير ذلك من الأمور التي ذكرناها.

واللحن الجلي سببه عدم تحقيق مخارج الحروف وصفاتها، وهما بابان من أبواب التجويد، ومن أهم مطالب هذا العلم، وأكثر هذا اللحن يقع بسبب الجهل بهذين البابين.

واللحن الخفي لا يمكن تجنبه إلا بضبط شرط الأداء، واتقان أحكام التجويد، وذلك لا يتسنى إلا لمن تلقى القرآن

من أفواه الضابطين المتقنين[1].

● **السؤال السابع: ما المقصود بالسنن الربانية؟ وكيف يستفاد منها؟**

● **الجواب**: السنن الربانية تنقسم إلى قسمين:

أولاً: السنن الخارقة: وهي التي يجريها الله على خلاف المألوف على يد رسول من رسله تأييداً من الله له بتلك المعجزة، كما حول الله تعالى «العصا» إلى «ثعبان» في يد موسى عليه الصلاة والسلام، وكما أنبع الماء من الصخرة عندما ضربها موسى بعصاه، وكما شق القمر نصفين معجزة لرسول الله ﷺ.

ثانياً: السنن الجارية: وهي نوعان:

الأول: سنة متعلقة بالأمور الطبيعية، كسنة الله في تعاقب الليل والنهار، والشمس والقمر، فهي تجري وفق ناموس محدد قدَّرهُ الله لها.

الثاني: سنة متعلقة بدين الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده. فهي ثابتة لا تتبدل مثل نصره لأوليائه، وإهانته لأعدائه، كما أنه سبحانه وتعالى إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول. فهو سبحانه لا يفرق بين المتماثلين، وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل، كما أن من سننه التفريق بين المختلفين كما دل على ذلك القرآن في

---

(١) «التبيين في أحكام تلاوة الكتاب المبين» لعبداللطيف دريان: (ص/١١٨).

قول الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾. [القلم: ٣٥].
و«السنن الربانية تجيء في القرآن غير محددة لكي تشمل أكبر قدر من الوقائع وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات»[١].

والسنن الربانية قد تستغرق وقتاً طويلاً لكي ترى متحققة في الواقع، في حين أن عمر الفرد محدود، ولذلك فلا يمكن رؤية السنة متحققة، بل قد يرى الإنسان جانباً من السنة الربانية ثم لا تتحقق نهايتها في حياته مما قد يدفعه إلى عدم إدراك السنة أو التكذيب بها، وهنا يكون دور التاريخ في معرفة أن السنة الربانية لابد أن تقع، لكن لما كان عمرها أطول من عمر الفرد، بل ربما أطول من أعمار أجيال، فإنها ترى متحققة من خلال التاريخ الذي يثبت أن سنة الله ثابتة لا تتبدل، كما قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢﴾. [الأحزاب: ٦٢][٢].

وفقه السنن ـ رحمني الله وإياك ـ من أعظم ما ينتفع به العبد في حياته. وسنن الله في الآفاق والأنفس والمجتمعات لا سبيل إلى فهمها والانتفاع بها إلا بتدبر القرآن المجيد، وإطالة النظر والتفكر في قصص المتقدمين وأخبارهم

---

(١) «تفسير التاريخ» لعماد الدين خليل: (ص/ ١٠٩).

(٢) «منهج كتابة التاريخ الإسلامي» للسلمي: (ص/ ٦٤ ـ وما بعدها) وهو مفيد في بابه.

وسيرهم، لاسيما صراع الأنبياء والرسل مع النخب الجاهلية في عصورهم، وصراع أتباع الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مع أعدائهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولجهل المسلمين بعلم السنن فصلوا بين السبب والمسبب، وبين المقدمة والنتيجة، فساءت بينهم النظرة العفوية الاستسلامية في أمور تتعلق بالقضاء الكوني الشرعي ومسألة الأخذ بالأسباب. ومن آثار ذلك كله: إهمال العلوم التجريبية العلمية المبنية على الإبداع والاختراع، وإضاعة أسباب النصر المادية، والتقصير في الأخذ بأسباب الرقي والتقدم، ونحو ذلك من ضروب التبلُّد والضعف.

وليعلم من وقف على هذه الورقات أن كثيراً من الدارسين قد قصَّروا في تبيين «علم السنن» وشرح حدوده وضوابطه ووجوه الانتفاع به! ومتى وقف المتأمل على سور القرآن المكية والمدنية، مع فهم عميق لمعانيها ومقاصدها أدرك سر هذا التفاوت الذي يعيشه المسلمون، والله المستعان[1].

---

(١) (فائدة): في «تفسير المنار»: (٤/ ١٣٩) طالب الشيخ محمد عبده بإلحاح، أن يدرس العلماء السنن الكونية، كما درسوا علوم الفقه والأصول وغيرها. وقد طالب الشيخ محمد رشيد رضا بمثل هذا في «تفسير المنار»: (٤/ ١٣٩) حين قال: «ولقد جاء القرآن يبين للناس أن مشيئة الله تعالى في خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمة، وطرائق قويمة، فمن صار على سننه في الحرب مثلاً ظفر بمشيئة الله، وإن كان ملحداً أو وثنياً، ومن تنكبها خسر، وإن كان صديقاً نبيًّا، وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين في موقعة أحد». وانظر =

● **السؤال الثامن: ما أهم الكتب المعينة على فهم القرآن وعلومه؟**

● **الجواب**: أهم الكتب المعينة على فهم القرآن وعلومه هو «القرآن» نفسه، وشرط ذلك تدبره على الوجه الذي كان به السلف يتدبرون ويتفكرون، وينهلون، مع إخلاص العمل لله تعالى ومتابعة الرسول ﷺ، و«اعلم أن على كل خير مانعاً، فعلى العلم موانع، وعن الاشتغال به عوائق: منها: الوثوق بالزمان المستقبل، وانقسام الأمل في ذلك. ولا يعلم الإنسان أنه إذا انتهز الفرصة وإلا فاتته، وليس لفواتها قضاء، فإن أسباب الدنيا تكاد تتزايد على اللحظات من ضروريات وغيرها، وكلها شواغل، والأمور التي يتم بمجموعها التحصيل إنما تقع على سبيل البحث، وإذا تولت فهيهات عود مثلها. ومنها الوثوق بالذكاء، وأنه سيحصل الكثير من العلم في القليل من الزمان متى شاء، فتخترمه الشواغل والموانع، وكثير من الأذكياء فاته العلم بهذا السبب. ومنها الانتقال من علم إلى آخر قبل أن يحصل منه قدراً يُعتد به،

= فصولاً نفيسة في هذا الباب في «تفسير التاريخ» للسامرائي: (ص/ ١٣٠ ـ وما بعدها)، و«السنن الإلهية في الحياة الإنسانية» للخطيب، و«حتى يغيروا ما بأنفسهم» لجودت سعيد، و«أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق» لأحمد كنعان، و«المسلمون وفقه السنن» لمحمد أمحزون (المجلة العربية/ العدد ٣١٣ ـ صفر ١٤٢٤هـ).

ومن كتاب قبل ختمه، وذلك هدم لما بُني، ويعز مثله.

ومنها: طلب المال والجاه، أو الركون إلى اللذات البهيمية، فالعلم أعز أن ينال من غيره، أو على سبيل التبعية، بل إذا أعطيت العلم كلك أعطاك العلم بعضه.

ومنها: ضيق الحال، وعدم المعونة على الاشتغال.

ومنها: إقبال الدنيا، وتقلد الأعمال، وولاية المناصب.

واعلم أن للعلم عَرْفاً ينم عن صاحبه، ونوراً يرشد إليه، وضياء يشرق عليه، فحامل المسك لا يُخفي روائحه، مُعَظَّمٌ في النفوس الخيرة، مُحَبَّبٌ إلى العقلاء، وجيه الوجه، تتلقى القلوب أقواله وأفعاله بقبول، ومن لم تظهر عليه أمارات علمه فهو ذو بطانة لا صاحب إخلاص»[(١)].

واعلم ـ علَّمك الله كل خير ـ أن الكتب المقيدة هنا قطرة من بحر، والموفق من وفَّقه الباري.

---

(١) «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد» لابن الأكفاني: (ص/ ١٤ ـ ١٥).

قلت: فليعي طلاب علوم القرآن هذه الكلمات الذهبية التي تقرع القلوب والعقول، ورحم الله ابن الأكفاني فقد أعذر بهذه الوصية، ولم يدع لغيره من الكلام بقية، فالبدار البدار إخواني وأخواتي إلى فهم كلام الباري والعمل بتوجيهاته وهداياته، والله الموفق لكل خير.

المكتبة القرآنية الميسرة

الرقم	اسم الكتاب	المؤلف	موضوع الكتاب
١	أخلاق أهل القرآن	أبو بكر الآجري	آداب حامل القرآن
٢	الهدى والبيان في أسماء القرآن	صالح البليهي	تحقيق أسماء القرآن
٣	مقدمة في أصول التفسير	ابن تيمية	أصول التفسير
٤	معاني القرآن	الفراء	معاني ألفاظ الآيات
٥	البرهان في علوم القرآن	الزركشي	علوم القرآن
٦	تيسير الكريم الرحمن	ابن سعدي	التفسير
٧	أضواء البيان	الشنقيطي	التفسير
٨	الجامع لأحكام القرآن	القرطبي	الأحكام الفقهية
٩	تأويل مشكل القرآن	ابن قتيبة	إيضاح ما غمض من الآيات.
١٠	أسباب النزول	الواحدي	سبب نزول الآية والسورة
١١	الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه	مكي بن أبي طالب	الناسخ والمنسوخ
١٢	النشر في القراءات العشر	ابن الجزري	القراءات
١٣	إعراب القراءات السبع وعللها	ابن خالويه	توجيه القراءات
١٤	معجم إعراب ألفاظ القرآن الكريم	مكتبة لبنان	الإعراب
١٥	الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن وسوره	أحمد القاسم	مناسبات الآيات والسور
١٦	إعجاز القرآن والبلاغة	الرافعي	إعجاز القرآن

الرقم	اسم الكتاب	المؤلف	موضوع الكتاب
	النبوية		
١٧	النبأ العظيم	محمد عبدالله دراز	الإعجاز اللغوي للقرآن
١٨	مباحث في إعجاز القرآن	مصطفى مسلم	إعجاز القرآن
١٩	الإشارات العلمية في القرآن الكريم	مدحت إبراهيم	الإعجاز العلمي
٢٠	مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع	السيوطي	تناسب الآيات والسور
٢١	استخراج الجدال من القرآن الكريم	عبدالرحمن الأنصاري	الجدال وطرقه في القرآن
٢٢	المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم	محمد فؤاد عبدالباقي	ألفاظ القرآن



الخاتمة

أخي المسلم.. يا مَن انكبّ لسانك وفؤادك على كتاب الله، مواظباً على تلاوته، حافظاً لحدوده، هذه كلمات جياد حسان، أوردها إليك في نقاط ثمان:

● **أولها**: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾. [الزمر: ٢].

● **ثانيها**: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾. [هود: ١١٢].

● **ثالثها**: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩﴾. [النجم: ٣٩].

● **رابعها**: **«أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعددهن من الإبل»**[1].

● **خامسها**: احذر الرأي المحض ـ في كتاب الله تعالى ـ الذي لا يستند إلى دليل قطعي ولا ظني مطلقاً، وهذا يكون مصدره في الغالب الهوى والتشهي، فهو مذموم، ولا يعوَّل عليه في تقرير الأحكام مطلقاً[2].

---

(١) «مسلم»: (رقم الحديث: ٨٠٣).

(٢) ذكر الأستاذ أحمد محمد جمال في كتابه «مع المفسرين والكتاب»: (ص/٢٠٨) أن أحد المستغربين ويدعى «عبدالعزيز فهمي باشا» زعم أن القرآن الكريم يحرِّم بتاتاً تعدد الزوجات، مستدلاً بالآية رقم (١٢٩) من سورة النساء، وقد راج هذا القول على الأستاذ «محمد رشيد رضا» ـ عفا الله عنه ـ وخُدع به، فقرره في «تفسير المنار»: (٤/٣٥٩).

● **سادسها**: من الفوائد اللطيفة في قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾. [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩]. أن هذا القرآن «لا يُدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي. قال البخاري في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به. وهذا أيضاً من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته، وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله، تكلم به حقًّا، وأنزله على رسوله وحياً، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه. فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحياً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته، ففي قلبه منه حرج. ومن قال: إن له باطناً يخالف ظاهره، وإن له تأويلاً يخالف ما يفهم منه، ففي قلبه منه حرج. ومن قال: إن له تأويلاً لا نفهمه ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه، ففي قلبه منه حرج، ومن سلط عليه آل الآرائيين، وهذيان المتكلمين، وسفسطة المسفسطين، وخيالات المتصوفين، ففي قلبه منه حرج. ومن جعله تابعاً لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه، ينزله على أقواله، ويتكلف حمله عليها، ففي قلبه منه حرج، ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه، ويسلِّم وينقاد لحكمه أين

كان، ففي قلبه منه حرج، ومن لم يأتمر بأوامره وينزجر عن زواجره، ويصدِّق جميع أخباره، ويحكِّم أمره ونهيه وخبره، ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه، ففي قلبه منه حرج. وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم.

وأنت إذا تأملت قوله: (لا يمسه إلا المطهرون) وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه، وقياس الشيء على نظيره، واعتباره بمشاكله وتأملت المشابهة التي عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن فهمت هذه المعاني كلها من الآية»[1].

● **سابعها**: تعلم مفيدات العلم[2] وطرقه التي تورثك الفقه الأصيل، وسبيل ذلك: ملازمة الوحيين في حلك وترحالك، فالله الله في حمل هذه الأمانة، وإهمال تلك السقاية، فلن ترتوي إلا منهما، ومن جرب عرف.

● **ثامنها**: اقرن بين العلم والعمل تلاوة وفقهاً وتعلماً وتعلمياً، فقد ظل «أبو عبدالرحمن السلمي» التابعي ـ رحمه

---

(١) «أقسام القرآن»: (ص/١٤٣ ـ ١٤٤).

(٢) الأصوليون يحصرون مُفيدات العلم في تسعة طرق: السمع، وضرورة العقل، والتواتر، والتجريب، والحدس، وقرائن الأحوال، والوجدان، والحس، والنظر العقلي.

الله تعالى ـ يقرىء الناس في مسجد الكوفة أربعين سنة، وكان «أبو منصور الخياط» التابعي ـ رحمه الله تعالى ـ يُلقِّن العميان وينفق عليهم، وقد رؤي في المنام بعد موته فقال: «غفر الله لي بتعليمي الصبيان الفاتحة»[1].

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه الأخيار.

* * *

(١) «نزهة الفضلاء»: (١/ ٣٨٣، و٣/ ١٣٤٧).

فهرس الفوائد واللطائف

الفهرس الإجمالي للكتاب

